
محمد جمال صقر
جِبَالُ الْبَحْرِ
١٤٤٤=٢٠٢٣
www.mogasaqr.com

بِسْمِ اللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِحَمْدِهِ

وَصَلَاةً عَلَى رَسُولِهِ وَسَلَامًا

وَرِضْوَانًا عَلَى صَحَابَتِهِ وَتَابِعِيهِمْ

حَتَّى نَلْقَاهُمْ

فِهْرِسٌ

مُقَدِّمَةٌ

وَيَقُولُ مَا نَمْنَمْتَ مِنْ نُخَبٍ فَحَسْبُكَ إِنَّهُنَّ عَلَى الْجُنُونِ شَوَاهِدُ
أَرَقَائِقٌ وَجَوَارِحٌ وَفَلَاسِفٌ وَعَقَارِبٌ وَفَوَاكِهٌ وَشَوَارِدُ
وَأَقُولُ حَسْبُكَ إِنَّهَا الدُّنْيَا وَمَا أَبْلَغْتَ مِنْ عُذْرٍ فَإِنَّكَ جَاهِدُ

جبال البحر صخر أو ثلج أو موج، وكل أولئك باطنها أجلُّ من ظاهرها، حتى صار كناية عن هذه الحال وتحذيرا من عاقبتها، أن يُقال: "جبالُ الثلج"! ولا تحذير في كتابي هذا، بل اعتذار بما ظهر عما بطن، تعويلا على فطنة من يفطن!

وجبال البحر إذا كانت موجًا كانت أعلام مَوْر وطَيْش وبطْش، وإذا كانت ثلجًا كانت أعلام مَكْر وخَتْل وخَبْل، وإذا كانت صخرًا كانت أعلام صَبْر وعَقْل وصَقْل، وكلّ أولئك كانت جبالُ كتابي هذه السبعة!

إن المبحر في كتابي هذا، يصطدم بجبل "فواكه" فيضحك، ثم بجبل "لطائف" فيضِلّ، ثم بجبل "شوامس" فيخضع، ثم بجبل "رقائق" فيبكى، ثم بجبل "جواسق" فيرضى، ثم بجبل "جوارح" فيسخط، ثم بجبل "فلاسف" فيرشد، ثم يؤوب مِن حيث ذَهَبَ دواليك؛ فلا يُرى إلا راشدا ساخطا راضيا باكيا خاضعا ضالا ضاحكا معًا: يغريه الضحك، ويغويه الضلال، ويكبته الخضوع، ويكربه البكاء، ويؤنسه الرضا، ويوئسه السخط، ويحفظه الرشد!

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

القاهرة،

٥/١٠/١٤٤٤ (٢٥/٤/٢٠٢٣).



إِخْرَاجٌ

أُطِلُّ من شباك مكتبي الكبير على مسجد تحظى بالاشتمال عليه عمارة عن يمين مدخلها محل حلاق نسائي لا يراه الناس يصلي معهم -ولو فعل لأحرجوه!- وفي المدخل يحتشد أبناء البواب دائما وفيهم رضيع لم أره يحبو إلا الآن، وإذا حَبْوُهُ إلى المسجد، ولكنه لم يكد يتجاوز إليه حتى أدركه أبوه الذي افتقده فعجل إليه ليحمله على مرأى الحلاق ومسمعه قائلا:

- هو كأبيه يعرف طريق المسجد!

أُسْرَةٌ

زوجان يتكلم كل منهما بضع لغات، يشتركان في اثنتين منها فقط! فإذا أراد أحدهما إشراك الآخر جعل كلامه بإحدى اللغتين المشتركتين، وإذا أراد إبعاده جعل كلامه بما سواهما! وتكاد هذه الحال تنحصر في محادثة الأهل! وعندئذ يضطر الآخر إلى أن يُنزّل كلامه منزلة الموسيقى الجانبية التي ينصرف معها إلى أحد مشاغله!

أَسْمَاءٌ

في حياتنا أسماء عزيزة غريبة نخاف أن ننساها، وقد ابتكرت طريقة أحافظ بها عليها: أن أسمي بها أولادي مع أسمائهم تسمية أسرية سرية!

نعم؛ فقد سميت ابنتي الدكتورة ريم "الخالة صَنْصَفْ"، وابني براء "الحاج مِتْولي"، وابنتي رهام "أم شعبان"، وابنتي سُرى "الخالة بُغْداد"، وهكذا ننطقها في قريتنا مضمومة الباء! وقد أعجبتهم الأسماء كثيرا، حتى كان بعضهم يُعدِّدها وكأنها أسماؤه الحُسنى!

أُغْنِيَّةٌ

أرسلت إليَّ إحدى الموسيقيّات مقطعا موسيقيا حزينا، تطلب مني أن أجد له شعرا يطابقه، ثم احترسَت بأن يكون في الرثاء وكأنها خافت أن يكون في الغزل! وكنتُ قد سبقتُ احتراسَها مؤثرا النظم على البحث، فقلت:

- حَيَاتِي فَرَاغٌ كَبِيرٌ كَئِيبْ وَقَلْبِي جَنَازَةُ حُبٍّ عَجِيبْ
  عَرَفْتُكِ بَدْرًا يُنِيرُ سَمَائِي فَغَطَّاكَ لَيْلُ الْفِرَاقِ الْغَرِيبْ
  فَيَا لَيْتَنَا مَا ذَكَرْنَا هَوَانَا فَعَاشَ وَلَمْ تَدْنُ مِنْهُ الْخُطُوبْ

وذكرتُ ما يستفيده الموسيقيون، كارها إباء محمود حسن إسماعيل -ولم يكن يجد كفاية نفقته- أن يأخذ أجرا عن "النهر الخالد"، التي أَجْدَتْ على محمد عبد الوهاب من المال والشهرة ما لم يُجْدِه عليه غيرُها، حتى لقد تَسمّى بها "النهر الخالد"؛ فقلتُ لها:

- أَجرُها كذا!

فقالت:

- قليل جدا في حقها، والله إنك لموهوب مجهول القدر!

ثم لا شيء!

إِيهٍ

قرأت قول يحيى بن عبد العظيم (٦٧٩=١٢٨١، أحد شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية) -وكان قد ترك الجزارة للشعر ثم رجع إليها-:

- "كَيْفَ لَا أَشْكُرُ الْجِزَارَةَ مَا عِشْتُ حِفَاظًا وَأَرْفُضُ الْآدَابَا

وَبِهَا أَضْحَتِ الْكِلَابُ تُرَجِّينِي وَبِالشِّعْرِ كُنْتُ أَرْجُو الْكِلَابَا"!

وليته لم يفعل!

فتذكرت بالعكس قول شعبان عبد الرحيم المغني الشعبي المصري -وكان قبل امتهان الغِناء كَوّاءً-:

"المَغْنَى لَوْ مَا صِلح حَالُهْ
هَسِيبُو وَارْجَعْ لِلْمَكْوَى
آهِ الْمَكْوَى
إِ يييييييه"!

وليته فعل!

بَصِيرَةٌ

أنْ يبصّر الشيوخ الشبان ببعض أحداث مستقبلهم، عملٌ معروف تغري أولئك به خبرتُهم وتصبّر هؤلاء عليه خشيتُهم. أما أن تنعكس الحالان فيكون الشبان هم الذين يبصّرون والشيوخ هم الذين يتبصّرون، فعملٌ غير معروف، ولا سبيل للإغراء ولا للخشية إليه إلا بين الشعراء، إذ يجوز للشاب الشاعر أن يبصّر الشيخ ويجوز للشيخ الشاعر أن يتبصّر بالشاب، وكأن الشعر سبيل ما لا يتسبّل، ووصلة ما لا يتوصّل!

وقد وقع لي من ذلك عام ٢٠١٧ الجامعي أن كنت بمكتبي من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية من جامعة السلطان قابوس، أتلقى الزوار، فإذا شاعر من أحب طلابي (السيف العيسري)، قد عوّدني أن يتلمّس ما يتوصل به إليّ: فمرة يسألني ما عرفت وما لم أعرف، ومرة ينشدني ما سمعت وما لم أسمع، ولكنه هذه المرة وقد وجدني ألبس نظارتي التي أستعملها خارج بيتي، صاح بي:

- هذه نظارتي، ضاعت مني في صلالة!

وصلالة مدينة عمانية جنوبية ساحلية سياحية باهرة مورودة! نضوتُ عن عيني النظارة أمامه، وقلبتها معجبا بها، متعجبا من أن تكلف نفسها من السفر شططا ومن الإقامة بمسقط بعد صلالة ما لا تحسد عليه!

ثم ضرب الدهر ضرَبانه فدعتني وأسرتي إلى واحة سيوة المصرية الحُدودية أوائل هذا العام ٢٠١٩، دواعي السياحة -وبينها وبين القاهرة مثل ما بين صلالة ومسقط- فأجبناها أَحْفِيَاءَ بها حِراصًا عليها، وركبنا إليها حافلتها من محطة عبد المنعم رياض بالقاهرة إحدى عشرة ساعة، لنعود بعد أسبوع إليها. وكما فزعنا إلى حقائبنا فرارا من مضايق المقاعد ذاهبين، فزعنا آيبين، وفي الفزع عجلة، وفي العجلة غفلة، وفي الغفلة أضعت نظارتي!

تَمْوِيهٌ

في أيام أَخْذ المارّين بالشهوة نسي الشابُّ المؤدب ما وعد أمه أن يُمَوِّه به إذا اضطر إلى الخروج؛ فلم يكد يتجاوز إلى الطريق حتى ركضَت وراءه إلى الشرفة صارخة على الملأ:

- نسيتَ علبة السجائر!

جَارَتِي

سبحان اللّٰه!

منذ قليل شممت رائحة ما تعده جارتي في مطبخها المطل على باحة بيتي؛ فقلت من سلسلة عقارب، ألومها على رائحة طعامها الطيب الزكية المؤذية:

- عَلَى جَهْلِ مَرْآهَا أَشَمُّ خَبَايَاهَا مِنَ الْمَطْبَخِ الْغَرْبِيِّ تَنْفُثُ بَلْوَاهَا

ولم ألبث أن سمعت جرس الباب، وإذا زوجها يهديني ثلاثة أكياس: كيسا فيه طبق جمبري وشرائح سمك وحبّار مقلية وطبق سمك سنجاري وطبق أرز سمك، وكيسا فيه بصل أخضر وخس، وكيسا فيه سلطة طماطم وفلفل وجزر!

أستغفر اللّٰه العظيم من كل شعر أثيم!

جَسَارَةٌ

بعد ظهر الأحد ١٣٢٨/٢/٩= ١٩١٠/٢/٢٠، أطلق النار على بطرس غالي رئيس نُظار مصر (رئيس وزرائها)، إبراهيم الورداني صاحب صيدلية الورداني بشارع عابدين من القاهرة الباهرة، فأرداه، ولم يبرح مكانه، فأحاط به الحرس، وقيدوا يديه، فأقبل عليه رشدي باشا وزير الحقانية (العدل)، فلطمه:

- لماذا قتلت الرئيس؟

فرفسه الورداني برجله:

- لأنه جعل مثلك في الوزارة!

ثم لما حوكم قال:

- قتلته لأنه خائن: وقع على شركة السودان الباطلة، ورأس محكمة دنشواي، وأصدر قانون المطبوعات، وأهان أعضاء الجمعية العمومية، ويحاول الآن مدّ امتياز قناة السويس!

حَرَامٌ

لم أكن أحتاج إلا إلى جنيه واحد؛ فجهزته قبل أن أخرج لصلاة الفجر بمسجد مولانا الشيخ عبد العزيز الدريني -رحمه الله، وطيب ثراه!- ثم تمشيتُ إلى شارع نهضة مصر المفضي إلى جامعة القاهرة، فأطفتُ به لأؤوب إلى الجسر الجامعي، فمررت ببائع نعناع لا يغيب عن مكانه في زمانه، فوجدته قد كنز حُزَمه في مكانزها، فأنكرتُ عليه، فاستنبطَ لي حُزْمة، فسألتُه عن ثمنها، فقال:

- توكل على الله!

أعطيته الجنيه، فأخذه، فاستزدتُّه بقية مُشترَى الجنيه، فزادني حُزْمة، ثم قال:

- تريد أكثر؟

فذهبتُ عنه متبسما متفكرا:

- (أشحّاذًا ظننتني أم غصّابًا)!

والرجل معذور؛ فقد هجمتُ عليه في الغَبَش بحجم ضخم؛ فهابني، ولو كنت من ظنَّنيه لأُبتُ بحمل بعير من النعناع الحرام!

حَلْقَةُ الْمَارِنْز

مساء أحد الأيام من أوائل تسعينيات القرن الميلادي العشرين وقفت أهذب لحيتي استعدادا لمحاضرة تلامذتي صباحا بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة، فأقبل عليّ أخي الصغير الحبيب، فتركت له ما كنت فيه، وأحطته بذراعيَّ إحاطة رِباط الصندوق،

ثم رفعته بالعكس لتكون كتفه على كتفي، فسمعت صوت ظهري، فأنزلته عجِلًا وجَلًا، ثم عدت إلى ما كنت فيه، لأصعد من لحيتي عفوا إلى شعري، فسُقط في يدي، ولم تنفعني مساعدة أهلي على إخفاء آثار جريمتي حتى جئتُ الحلّاق، فدار بأسفل رأسي حتى استوى شعري كله، ثم غدوت إلى تلامذتي، لأكون أول من يحلق من أساتذتهم حلقة المارنز (مُشاة جنود البحرية الأمريكية)، قاتلهم الله!

خِطْبَةٌ

قبيل الحج من عام ١٤٣٠ (٢٠٠٩)، زارتني أم بَراء حيث أقيم في جوار رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- أستاذا مشاركا في جامعة طيبة، فكنتُ ربما ذهبت عنها إلى الجامعة، فآثَرت الحرم النبوي على البيت، وركبَت على قُرب المسافة حرصا على وقتها وجهدها، فمكثَت ما شاء الله، ثم بادرَتني إلى البيت.

ومرةً عدتُّ فاستقبلَتني ضاحكة، فلما سألتُها قالت:

- طلبَني سائق الأجرة اليوم للزواج!
- ما شاء الله! زواج مبارك!

رآها غير متنقبة، فظنها على أعرافهم غير متزوجة!

خَطِيبٌ

في العشرين من عمري حضرت صلاة جمعة، وغاب الإمام، فدُعيت إلى الخُطبة، فخطبت بفكرةٍ ما زلت أذكرها وأحبها، هي أن صحابة رسول الله -صلى الله عليه، وسلم، ورضي عنهم، وأرضاهم!- ذوو خصال مختلفة: فمنهم المتمسك بالأحوط، ومنهم المتمسك بالأيسر، ومنهم المتبلغ بالأخشن، ومنهم المتبلغ بالألين، ومنهم المشغول بالناس، ومنهم المشغول بالقرآن، ومنهم المشغول بالصلاة، ومنهم المشغول بالصيام،...- وأن لمن شاء منا أن يتشبه بمن شاء منهم، فكلهم من رسول الله ملتمس. ثم أشرت إلى المؤذن أن يقيم الصلاة، فنبهني على القعود والخطبة الثانية، فأبيت عليه ارتباكا، ثم صليت بالناس!

فرغت من ختام الصلاة، وانتحيت جانبا أصلي السنة، فقام عن يميني رجلان أحدهما خادم المسجد وكان أعور يرى صاحبه ولا يراني، قال له صاحبه:

- لا بأس بهذا الشاب، ولكن لماذا فعل ذلك!

فأجابه:

- وهل كل من وقف على المنبر خطيب!

سِيرَةٌ

قيل للشيخ عبد الحميد كشك:

- إن السادات (حاكم مصر عندئذ)، يرجو أن يسير سيرة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه!

فقال:

- كيف وعمرُ إمامٌ عادلٌ، والساداتُ عادلْ إمامْ!

صَرِيعٌ

تلقبنا في أوَّليَّتنا اللقبَ نفسه على ما بيننا من حواجز الدهر، فأما مسلم بن الوليد فأضاف لقبه إلى الغواني، وأما أنا فأضفته إلى اللغة؛ فانظر إلى كل منا ماذا فعل به لقبه:

أما مسلم فقد رُزق أميرًا كافأ بالذهب كل كلمة من كلِمه!

وأما أنا فقد ابتُليتُ في جُنديّتي بقائدٍ اطلع مني على ذلك، فظل يردده:

- تعالَ يا سِي صريع، رُحْ يا سِي صريع!

الطَّنَاحِيُّونَ

كانت للدكتور محمود محمد الطناحي أستاذنا الحبيب وصديقنا الجليل -رحمه الله، وطيب ثراه!- سيارتان: قديمة وحديثة، وكان يركب الحديثة حتى إذا حبَسها حابسُ السيارات ركب القديمة؛ فكان يسمي القديمة "المنصوب بنزع الخافض"، من اصطلاح النحويين على مثل "قوم" في "وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا"، تعبيرا عن أن سيارته القديمة لا تشم رائحة الطريق حتى تُزال عنها سيارته الحديثة التي تكتم أنفاسها مثلما يكتم حرف الجر نفس الاسم المجرور!

ربما قلت:

- كلٌّ نحويّ ومصطلحاته!

فقلت لك:

- ما أكثر النحويّين، وما أندر الطناحيّين!

غَرَامَةٌ

كان يا ما كان في حاضر الزمان إنسان وافر الغفلة والنسيان، فَرضَت على حقيبة سفره صاحبةُ الطائرة غرامةَ وزنٍ زائد، فأبى عليها بأنه من حقه في أصل الحجز، فأنكرت، فأبى، ثم أنكرت، فأبى، ثمّت أنكرت، فأبى!

نعم؛ فهو من النباهة بحيث لا يمكن لمثلها أن تخدعه! تأملَت نتيجة تحليله الفيروسي الكوروني، فوجدَتها أقدم قليلا من الحد المحدود، فأثارت عليه من رَدَّه من حيث جاء، ليتكلف من تحديث التذكرة وإعادة التحليل وخسارة الوقت، ما لا ذكر معه لغرامة وزن، ثم لم يُسمَح له بالزيادة عليه!

مُؤْتَمَرٌ

صباح الاثنين (١١/٣/٢٠١٩)، عرضتُ بحثي "مصطلحات النصية العروضية بين القدامة والحداثة"، في الجلسة الأولى من مؤتمر قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، من جامعة السلطان قابوس "المصطلح في العربية: القضايا والآفاق"، فاختارتني دون غيري باحثةٌ تونسية نابهة، لتستنكر عليّ غموضَ بحثي، فكفكفتُ من استنكارها قائلا:

- لقد كنت أريد توضيح كذا بكذا وكذا بكذا وكذا بكذا، ولكنني لما رأيتُكِ من على المنصة -وكانت حسناء متبرجة- نسيتُ كل شيء!

فضجَّت حشود الحاضرين ضحكا وتصفيقا، وأمنتُ الباحثةَ طَوال المؤتمر!

يَا فَرَجِي

رووا عن هشام بن السائب الكلبي (الأخباريّ النَّسّابة)، أنه قال:

"حَفِظْتُ مَا لَمْ يَحْفَظْ أَحَدٌ، وَنَسِيتُ مَا لَمْ يَنْسَ أَحَدٌ، حَفِظْتُ الْقُرْآنَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةٍ، وَقَبَضْتُ عَلَى لِحْيَتِي لِآخُذَ مِنْهَا مَا دُونَ الْقَبْضَةِ، فَأَخَذْتُ مَا فَوْقَ الْقَبْضَةِ"!

ودع عنك حفظه الآن الذي تكاد لا تعرفه، وانظر في نسيانه؛ فقد كنتَ شديد العجب ممن يعمل الشيء وينسى من فوره أنه عمله، عجبا شديدا ربما أفضى بك إلى تكذيبه، حتى وجدت من نفسك مثل ما وجد، فاشتد به فرحك!

أَلَا رجلًا يعجب لفرحي هذا عجبًا أيَّ عجب، شديدا أو ضعيفا، وثقيلا أو خفيفا!

ألا رجلا يكذِّب أنني أضع الشيء وأنسى من فوري أنني وضعته، وأحمله وأنسى أنني حملته، وأسمعه وأنسى أنني سمعته، وأنطقه وأنسى أنني نطقته،...، فقد أفضي بي إلى ما لا يحسُن إلا بمثل ذلك النسابة الأخباري الفذّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!



أُسُسٌ

أساس العمران العلم، وأساس العلم التعلم والتعليم، وأساس التعلم والتعليم المحبة، وأساس المحبة الثقة، وأساس الثقة الإنصاف، وأساس الإنصاف الأخوة، وأساس الأخوة الوطن الواحد الذي يضم من فيه جميعا معا، لا يُؤْثِر بعضَهم على بعض.

أَصْلُ الْإِشْكَالِ

من أهم ما سمعته في لقاء الطبيبة نوال السعداوي بالفيلسوف محمد عمارة الذي أدارته المذيعة منى الشاذلي، استنكار محامي الطبيبة على الفيلسوف تكراره مطالبة الطبيبة بسؤال أهل الذكر، قائلا:

- لماذا تستأثرون بالفهم وكأنكم دوننا الذين تقرؤون وتفهمون!

وما كان أسهل إزالة هذا الاستنكار على الفيلسوف، بأنه لا يتهم فهم أحد ولا ذكاءه، ولكنه يعيب أخذ المقروء من سياق يعرفه المشغول به، ووضعه في سياقٍ غيره يعرفه آخِذُه -ولن يترك أحدٌ مشاغلَه التي تملأ عليه وقته كله، لمشاغل غيره- فعندئذ يفهم كل قارئ ما شاء على ما شاء، وهو أصل الإشكال الذي لا يكاد يخلو منه أحد!

إِقْنَاعٌ

مهما دعوت الناس إلى اللغة العربية فنا وعلما، واستهلكت في الدعوة جهدا وعمرا- لم تبلغ من إقناعهم بها ما يبلغه غير المتخصص لها، إذ تظلُّ عندهم متهمًا بتَنفيق بضاعتك! ولكنهم إذا اقتنعوا تحولوا عنه يبحثون عنك، وعندئذ تشمخ بينهم بأنفك وكأنك الذي أقنعتهم!

الْأَمْثَالُ الْعَامِّيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ بَيْنَ الْبَاجُورِيِّ وَتَيْمُورَ

قال خليل ثابت عضو لجنة نشر المؤلفات التيمورية، في المقدمة التي قدم بها طبعة ١٣٧٥ (١٩٥٦)، الثانية، من كتاب أحمد تيمور باشا "الأمثال العامية المصرية":

"عُني المغفور له العلامة السيد أحمد تيمور باشا، بجمع تلك الأمثال العامية، بل كان أسبق العلماء واللغويين في العالم العربي إلى العناية بجمع هذه الأمثال التي يضمها هذا الكتاب في طبعته الثانية"!

ولقد غاب عنه أن محمود عمر الباجوري أستاذ الحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والبلاغة والنحو والمطالعة والتوحيد والفقه والترجمة بمدرسة دار العلوم (التي صارت فيما بعد إحدى كليات جامعة القاهرة)، وغيرها- شارك بستوكهلم عام ١٨٨٩، في المؤتمر السويدي الدولي العلمي الشرقي، برسالته "أمثال المتكلمين من عوام المصريين"، التي احتشد له فيها ثلاثة آلاف مثل تقريبا، فشرحها بما يناسبها من أمثال العرب وآيات القرآن الكريم والأحاديث والحكم والأشعار، وضَمَّنَ شرحه مواويل عامية كثيرة، كما ذكر محمد عبد الجواد في كتابه "تقويم دار العلوم"!

ولولا الموت الذي أعجل أحمد تيمور باشا -رحمه الله، وطيب ثراه!- عن تقديم كتابه، لربما ذكر من سبقه وحقيقة ما استفاده وفضل دار العلوم وما وجب من شكرها، ولاسيما أنه احتشد له مثل ما احتشد للباجوري، فشرَحه وضمَّنه مثلما شرَحه وضمَّنه!

انْتِصَافٌ

بكَّرَتِ اليوم (٢٠١٨/٣/٢٠)، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، إلى حفلها الاجتماعي السنوي (تواصل)، الذي عودتنا عليه بعد شهرين منه، فلم

يخلُ عندي من قصد مطابقة يوم السعادة العالمي، ولكنني انتصفت به من براء ابني الذي كان كأنما يُندِّمني على انفرادي عنهم يوم مولدي!

إِنَّمَا الْأُسْتَاذُ بِتَلَامِذَتِهِ

من قديم يجري مترجمو سِيَر أهل العلم على ذكر تلامذتهم، ولسان حالهم: إنما الأستاذ بتلامذته. وبهذا انتفعت اليوم (١٤٤٤/٣/٢٠= ٢٠٢٢/١٠/١٦)؛ فقد اعترض طريقي مترددًا شابٌّ بالفرقة الأولى من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، لا يعرف عني إلا أنني حاضرتهم الأسبوع الماضي:

- اسمح لي!
- تفضل!
- هل درست للمهندس أيمن عبد الرحيم؟
- نعم.
- ينبغي لك أن تفخر بذلك!
- نعم، صدقت، أشكر الله عليه كثيرا، فرج الله كربه! وقد كتبت عنه فصلا من كتابي "دراعم".
- ضراغم!
- (يا لهُ تحريفًا، ما أصدقه)!

بَحْرٌ

اضطُر الأستاذ إلى الغياب عن محاضرة مقرر اللغة العربية العامّ التي يحتشد فيها طلاب الجامعة على اختلاف تخصصاتهم، ورغب أن ينوب عنه أستاذُه الكبير، وهنأهم بموافقته منشدا: "وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا" -لا يرى نفسه في بحر أستاذه غير ساقية تمتاح منه!- ثم لما سال بهم البحر اضطرب اضطرابا شديدا، وعَيَّ بسَيْلِهِ، حتى جعل المحاضرة أسئلة كثيرة متشابهة، كان منها أن يختاروا مما بين هذين القوسين:

- "[تزخر×تذخر×تدخر×تزحر] المكتبة العربية بالكتب العمانية"،

فاختارت فتاة منهم "تزخر"، فخطأها بـ"تذخر" -وهو المخطئ- فأبَت! ولم يَسْكُنِ اضطرابُه بعد المحاضرة، حتى لقي تلميذه، وقص عليه القصص، وأوصاه أن يُخطّئه علنًا، ويثني على ثقة الفتاة، ويحسن مكافأتها، ويعتذر إلى البحر!

بَلَاغِيَّةٌ

من اللطائف البلاغية، ما وقفت عليه من قصيدة أبي نواس التي رثى بها قديما خلفًا الأحمر:

"لَا تَئِلُ الْعُصْمُ فِي الْهِضَابِ وَلَا شَغْوَاءُ تَغْذُو فَرْخَيْنِ فِي لَجَفِ"،

وقصيدة حسن كامل الصيرفي التي رثى بها حديثا محمود غنيم:

"بَلَغَ السَّيْرُ بِالْغَرِيبِ مَدَاهُ فَرَمَى عِبْئَهُ وَأَلْقَى عَصَاهُ"؛

فأما الصيرفي فقد كان عهِد صاحبَه شديدَ الولع بالإطالة، فأطال مرثيته على غير عادته! وأما أبو نواس فقد كان عهِد أستاذَه شديدَ الولع بالغريب، فأغرب في مرثيته إغراب المعجميّين!

بَلْوَى

لما كان اشتمال العامية على الفصحى أرفع منزلة عند الناس من اشتمال الفصحى على العامية -ولكل منهما مكانتها في مكانها- هابوا إذا تكلموا الفصحى أن تتسرب إليها العامية!

ولكنهم ربما حاروا فلم يُزِل حيرتَهم غيرُ تغيير الوجه العامي، يفتحون سين "سهولة" وهو خطأ، والضم العامي هو الصواب، ويكسرون زاء "مخزن" وهو خطأ، والفتح العامي هو الصواب! بلوى ثقافية عامة، لا ينجو منها صغير ولا كبير ولا جهول ولا عليم، لولا تَوَقِّيها لأفضَت إلى العزة بالإثم!

بَيْنَ قَلَنْسُوَتَيْنِ

من أجل إحدى صلوات الجمعة، دخلت المسجد النبوي بين عامي ١٤٢٩ و١٤٣١ الهجريين، أسعى إلى الروضة الشريفة أو ما يمكنني أن أنتقل منه إليها قبل أن تزدحم.

عكست قلنسوتي الرياضية لكيلا تعوق سجودي، وحييت المسجد، ثم أعدتها وجلست. التفت إليّ جار أفغاني مُتقلِنس قلنسوتهم التي أغبطهم عليها دائما ولاسيما في البرد، فضرب بأنامله لسان قلنسوتي وكأنه لسان جندي أمريكي يغيظه في وطنه، فعكستُها مرة أخرى وكأنني أقطع له لسان الأمريكي، وارتحنا جميعا!

تأْوِيلٌ

ذكر لي مرة أخي الجزائري الحبيب أستاذ البلاغة العربية الدكتور الحواس بري، أنهم في قريتهم يؤولون هديل الحمام الوحشي (اليمام)، بأنه:

- إحميدة وِلْدي،
خَذُوه شخصين،
ذبحوه بموسين!

فذكرني تأويلهم هذا الفني العجيب ما درجنا عليه في قريتنا من تأويله بأنه:

- وحدوا ربكم!
وحدوا ربكم!
وحدوا ربكم!

وتأويل هديل الحمام الإنسي، بأنه:

- يا رؤوف!
يا رؤوف!
يا رؤوف!

وتأويل زُقاء الدِّيك، بأنه:

- الله أكبر!
الله أكبر!
الله أكبر!

الذي يؤوله هو نفسَه نصارى مصر، بأنه:

- المسيح قام!
المسيح قام!

المسيح قام!

تَفَنُّنٌ

زعموا أنه وُجد مكتوبا لفتاةٍ على جدار بيتها باللسان المصري:

- "مَحَدّشْ حَبّكْ
مَحَدّشْ عَبَّرِكْ"،

ومن تحت ذلك توقيع الكاتب:

- "أَنَا مَحَدّشْ"!

وقد ذَكَّرني هذا التوقيع المثير مقطعًا من أغنية أذاعها علينا قديما سائق إحدى سيارات ما بين المحافظات المصرية:

"نِزْلِ الْمَطَرْ وَقْتِ رْجُوعِي
مَطَرْ دَهُو وَالَّا دْمُوعِي"!

لعلك الآن تهتف:

- اللهُ، ثم اللهُ!

ولا ريب في اختصاص اللسان المصري كغيره من الألسنة الشعبية، بتعبيره الفني المثير، ولكن ينبغي أن يعرف موضعه من اللسان العربي، رسالة على جدار، أو أغنية في سيارة!

تَوْلِيدٌ

رُبَّمَا قِيلَ إِنَّ تَكَالِيفَ الْوَظَائِفِ وَرَتَابَتَهَا تَقْتُلُ الْإِبْدَاعَ، وَأَصَحُّ مِنْهُ وَأَنْفَعُ أَنَّهَا تُوَلِّدُ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِبْدَاعِ لَا تَخْطُرُ لِمُتَفَرِّغٍ!

الْجُنْدِيُّ

لولا فصاحة أستاذنا الحبيب الدكتور أمين علي السيد، في مناقشة رسالة أحد طلاب الماجستير عام ١٩٨٤، بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة- ما انتبهنا إلى أنه منسوب إلى "جُنْد": طه الجُندِيّ!

حَبِيبٌ

منذ عشرين عاما أنشدتُّ تلامذتي العُمانيين قول المتنبي:

"نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ"،

فأسرع أحدُ نُجبائِهم إلى التعليق:

- يا دكتور، اسمي حَبِيب، واسم أبي نَصيب!

والاسمان أكثر انتشارا في عُمان منهما في غيرها!

حِذَاءٌ

سمعتُ مرة أحد مَن أُكرِهوا على تدريس علم العروض، يذكر لتلامذته في صفة إحدى أعاريض بيت الكامل، أنها "حِذَاء"، فقلت له:

- إذا كان الضرب "أَحَذّ" فالعَروض "حَذّاء"، مثل "صَمّاء" مؤنث "أَصَمّ"!

ثم شغلني قبولُه عن تنويهه!

حَنِينٌ

أمس ذكرتني إحدى بناتي كيف كنت في الشتاء ألبس العباءة العربية وأحيطها بها معي! وأول من أمس ذكرتني أختها كيف كنت أحتفل آخر الأسبوع بافتراش الأرض وقد انتثرت بين أيدينا أنواع الحلوى!

سبحان الله!

لو كنت أعلم أن لذلك هذا الأثر الكبير الخالد لبقيت معهم في العباءة على الأرض!

خَبِيرٌ ذَكِيٌّ أَمْ مُبْدِعٌ عَبْقَرِيٌّ

لم أرد قبل أن أنظم هذه السَّمْرؤوتة:

"أَذَكِيًّا تَرَاهُ أَمْ لَوْذَعِيًّا عَبْقَرِيًّا يَظَلُّ يَفْرِي فَرِيًّا

مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَانِ أَيْهَمُ لَا يَرْكَبُ إِلَّا الْمَجْهُولَ يَهْوِي هُوِيًّا

لَقِحَتْ أُمُّهُ بِبَذْرَةِ جِنِّيٍّ فَأَضْحَى يَطْوِي الْمَآلَاتِ طَيًّا"،

إلا أن أتكلم في فرق ما بين الذكي والعبقري؛ فقد وجدته ملتبسا على الناس حتى علمائهم، إذا ذكروا خبيرا قالوا: عبقري، وإذا ذكروا مبدعا قالوا: ذكي، وهما مختلفان بحيث لا يشترط في المبدع العبقري أن يكون خبيرا ذكيا، ولا في الخبير الذكي أن يكون مبدعا عبقريا، لا بل يكفي أن يشتمل كل منهما على طرف مما عند صاحبه.

نعم؛ فما الخبرة والذكاء إلا استيعاب التجارب السابقة واستحضارها عند الحاجة، وما الإبداع والعبقرية إلا استشراف طرق الحصول واستحداث طرائق الوصول.

ولكن لم تكد عبارتي عن ذلك تقول: "أذكيا تراه"، حتى تراقصت تقول: "أم لوذعيا عبقريا..."، ثم انساقت تحطِب في هوى المبدع العبقري، وكأن ليس في الأحياء غيرُه، وألا حاجة بالعمران مع المبدعين العباقرة إلى الخبراء الأذكياء، ثم لم تجد حدا تقف عنده إلا أن تتسمى أَرْطُغْرُل (اسم البطل التركي الخرافي، الذي ملأ مسلسل سيرته الدنيا الآن وشغل الناس)، وهو موقف فني خالص، يُعذر فيه صاحبه بعماه، ولا ريب في أنه "لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ"، صدق الله العظيم!

خَيْرُ الْآبَاءِ

منذ أسبوع اجتمعت على تفجير الأفكار العجيبة المُسلّية، ثماني فتيات مِصريّات جامعيّات نابهات، كل اثنتين منهن أختان، فخطر لهن أن تذكر كل أختين منهن دون حرج، أقربهما إلى أبيهما؛ فاتحدت آراء ست أخوات منهن على أقربهن إلى آبائهن، وانفردت اثنتان، فاجأت كل منهما أختها بأنها ترى أنها أفضل منها عند أبيهما! قالت راوية الخبر:

- فكان هذا الأب عندهن جميعا خير الآباء!

ذِكْرَى

في ذكرى المولد النبوي من عام ١٤٠٩=١٩٨٨، غاب خطيب الإذاعة العسكرية بقيادة لواء المشاة الميكانيكيين العشرين والمئة حيث كانت جُنديّتي من الجيش الميداني الثاني، فدُعيت بدلا منه إلى كلمة الصباح، فانتهزتها فرصة، فحشدت من الأخلاق النبوية الشريفة ما وجدت من بعض قادتي عكسَه، ثم وقفت في مطبخ مشروبات القادة حيث

يتحصّن جهاز الإذاعة والخطيب فلا يراهما غير عاملَي المطبخ! أعطيتُهما ظهري، ثم صرختُ بكلمتي! خرجتُ وفي مسرح نظري ذهول العاملَين وجمود طابور الصباح واستنكار أحد الضباط!

مرّ بي قائدي المباشر وكان مؤدبا متقلِّبا، فقال لي:

- أريد أن ألكُم وجهَك!

ثم صادفني القائدُ العامّ وكان سياسيا حكيما، فناداني ولم يزد على أن سألني عن الكلمة اللطيفة التي بلغه أنني ألقيتها صباحا، فلم أزد على أن ذكرت له أنها كانت في أخلاق صاحب الذكرى، عليه الصلاة والسلام! ثم التقينا مساءً أنا وصاحبي الفريد، فسألته، فقال لي:

- كنت أستمع متطلعا إلى السماء أكاد أطير!

رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ

أمس (٤/٨/١٤٤٢= ١٧/٣/٢٠٢١)، نبهت تلامذتي على أنه لا يجوز في العربية إلا شذوذًا حذفُ حرف الجر وإبقاء جره، مشيرا إلى رؤبة بن العجاج (كبير الرُّجّاز الذي علمهم السحر)، الذي كان إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: خيرٍ، عافاك اللّٰه! أي بخير- مستطردا لتلامذتي إلى أنه كان يحفظ الغريب ويحشره في رجزه ليدهش طلابه، وأننا في "معجم الدوحة التاريخي"، كنا إذا اعترضَنا رَجَزُه قلنا جميعا معًا:

- رؤبة، حسبنا اللّٰه، ونعم الوكيل!

رِحْلَةُ الْإِنْسَانِ

لم يكن لأديبين عربيين ألمعيين كمحمود محمد شاكر ونجيب محفوظ -رحمهما اللّٰه، وطيب ثراهما!- أن يغفلا عن تأمل رحلة الإنسان منذ خُلق إلى وقتهما؛ فليس أجدر منها بتفكيرهما وتعبيرهما. وقد فعلا ذلك بين خمسينيّات القرن الميلادي العشرين وستينيّاته، حين بلغ السيل الزُّبى تفاؤلا وتشاؤما!

أما شاكر فجعل في ذلك قصيدته "اعصِفي يا رياح"، ذات الأربعة ومئة البيت، وأما محفوظ فجعل فيه روايته "أولاد حارتنا"، ذات الثلاث والتسعين وخمسمئة الصفحة- أي بكل بيت شاكري ست صفحات محفوظية، وما كان أقلها!

نعم؛ فبعدما مرا جميعا بالإنسان على مراحل رحلته المتتابعة المتفاوتة علما وجهلا وهدى وضلالا وأمنا وخوفا وسعدا وتعسا، اختلفا فيما أفضيا به إليه؛ فأما محفوظ فأقره في مقام العلم، وأغناه به، تنبيها على حرية العقل ووجوب التسليم له بعد ما حصّله. وأما شاكر فزلزله في مزلق الوهم، وحذره منه، تنبيها على نقصان العقل ووجوب التأدب في مقام الملكوت الهائل!

- ماذا فعل عرفة الآن، يا نجيب!
- صار عرفات، يا أستاذ محمود!

فليت الرياح كانت ريحا!

- إذن لدالت دولة الإنسان من قبل أن تبلغ قرارها!

بل لأدالت بعضًا من بعضٍ!

ولا يفتأ الخالفون يبدؤون من حيث بدأ السالفون!

نعم؛ بدءَ من اتعظوا فتأدبوا!

- فلتعصف الريح إذن ما شاءت، يا أستاذ محمود!
- "اِعْصِفِي يَا رِيَاحُ مِنْ حَيْثُمَا شِئْتِ وَعَفِّي الطُّلُولَ وَالْآثَارَا

وَانْسِفِي يَا رِيَاحُ غَايَةَ هَذَا اللَّيْلِ حَتَّى يَحُورَ لَيْلًا سِرَارَا"!

الزَّمَنُ الْجَمِيلُ

يمر كل شيء في هذه الدنيا بمراحل زمنية مختلفة، يكون في بعضها أقوى منه في بعض وأقدر وأفضل، يمتلئ بما لديه، ويستطيع ما لم يكن يستطيع، ويزيد على غيره. ثم قليلا قليلا يتدهور إلى حيث يفرغ ويعجز وينقص؛ فيظل حزينا على ما فاته، يستحسن ما كان فيه، ضيقا بما هو فيه:

"وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلَّا"!

وعلى رغم اختلاف مراحل الأشياء في هذه الدنيا، ينبغي الاشتغال في كل مرحلة بما هي عليه -مهما كان- وعدم الانصراف عنها إلى بكاء غيرها؛ فإنه إذا كانت هذه المراحل خمسا مثلا، وكانت إحداها فقط هي التي يتألق فيها وجود الشيء قوة وقدرة وفضلا جميعا معا، فإنه لا عقل في إهمال المراحل الأربع بكاء على تلك المرحلة! بل العقل في اكتشاف مزاياها، والاجتهاد في الاستفادة مما فيها. على أنه كان ينبغي الاستعداد في مرحلة القوة والقدرة والفضل، لغيرها من المراحل الأقل قوة أو قدرة أو فضلا؛ وفي هذا المعنى كان حديث رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!-:

"اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"؛ صدق رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

ومن عجائب هذه الدنيا اجتماع وحشة الإنسان من كل جديد ولذته به جميعا معا! يستوحش منه مُلْتَذًّا به حين يسمعه أو يراه أو يلمسه أو يشمه أو يذوقه، حتى إذا ما تعوَّده أَلِفَه وصار كأنه هو نفسه، أو بضعة منه؛ وما ذاك إلا أنه حين يتردد عليه يطرح عليه نَفَحات من بَوْح صدره، وصورا من خيالات نفسه؛ فإذا هو منه في صحبة طيبة من الأرواح المتعارفة المؤتلفة، لا يصبر عليه إذا غاب عنه، ولا يجد طعم الحياة!

ومن عجائب هذه الدنيا كذلك أن المكرور المألوف السابق ذكره، مَمْلولٌ، بل مفقودًا! فإن العوائد تقتل الفوائد، ولا سبيل إلى حفظ فوائد المكرورات من عواقب المملولات، إلا أن نغير منها أو من أنفسنا، حتى إذا ما تلاقينا كل مرة تلاقينا جديدين، كأن لم نتلاق من قبل:

"لَيْتَ شِعْرِي إِذَا أَدَامَ إِلَيْهَا كَرَّةَ الطَّرْفِ مُبْدِئٌ وَمُعِيدُ
أَهْيَ شَيْءٌ لَا تَسْأَمُ الْعَيْنُ مِنْهُ أَمْ لَهَا كُلَّ سَاعَةٍ تَجْدِيدُ
بَلْ هِيَ الْعَيْشُ لَا يَزَالُ مَتَى اسْتَعْرَضَ يُمْلِي غَرَائِبًا وَيُفِيدُ
مَنْظَرٌ مَسْمَعٌ مَعَانٍ مِنَ اللَّهْوِ عَتَادٌ لِمَا نُحِبُّ عَتِيدُ
لَا يَدِبُّ الْمَلَالُ فِيهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَقْدِ سِحْرِهَا تَوْكِيدُ
حُسْنُهَا فِي الْعُيُونِ حُسْنٌ جَدِيدٌ فَلَهَا فِي الْقُلُوبِ حُبٌّ جَدِيدُ
أو كما قال ابن الرومي، قاتل الله شيطانه!

سِتِّي

في قُرانا المصرية وغيرها نُنادي الجَدّ: يا سِيدِي، بل نحذف ياء المتكلم: يا سِيد! ونناديِ الجَدّة: يا سِتِّي، ولا يخفى أنها محرفة عن "سيدتي"، بدلالة نداء الجَد. ومع ذلك يخطر أولًا لصاحب "القاموس المحيط" توجيهُ كلمة "سِت (امرأة)"، بأنها عدد، وأنها إنما دلت على المرأة من حيث تملك على الرجل ست جهاته: شرقه وغربه وشماله وجنوبه وفوقه وتحته!

سَرِقَةٌ

- ما الذي تأخذ منه فيزداد؟
- العلم.
- والحُفرة!
- "العلم يزكو على الإنفاق"، رضي الله عن قائلها باب مدينة العلم أبي الحسن أمير المؤمنين، وكرم وجهه! فيمَ يجتمع العلم والحفرة؟
- في ازديادهما بالأخذ منهما.
- قد عرفنا هذا آنفا! إلامَ تصل بحَفر الحُفرة؟
- إلى كنوز الأرض.
- وكذلك ببذل العلم تتأمل ما لم تتأمل فتحقق ما لم تحقق وتعلم ما لم تعلم.
- ونستفيد من تراب الحفرة.
- نعم، يُتَّخَذ لبِنات يُبتنى بها، وكذاك يستفيد من العلم المبذول كل متعلم...

ما ألطف هذا الحوار! دعني أكتبه!

قال ابني الأصغر:

- هذا حظي دائما، أن أفكر وتُسرق أفكاري!

سِيَاحَةٌ لُغَوِيَّةٌ

اليوم الأحد (١٠/٧/١٤٤٠=١٧/٣/٢٠١٩)، قلت لتلميذة عمانية نجيبة، حضرَتْ بعد غياب:

- خطوة عزيزة!

فلم تدر بم تجيب، ولا أن عليها أن تجيب؛ فقلت لها:

- هذه تحية مصرية، جوابها: يعز مقدارك!

وأعدت عليها العبارة، فأجابتها بما علّمتها!

ثم ذهبت إلى محاضرتي، وفيها رأيت تلميذا حبشيا نجيبا، حضر كذلك بعد غياب، فقلت له على مسمع زملائه العمانيين:

- عاش من شافك!

فلم يدر بم يجيب، ولا أن عليه أن يجيب؛ فقلت له:

- هذه تحية عمانية، جوابها...

ولم أكد، حتى سبقني زملاؤه:

- عاشت أيامك!

وفي مصر يحيي بها بعضنا بعضا، وما من مجيب! ثم قلت له:

- وعند العمانيين عبارة أخرى لطيفة، قولهم في المقام نفسه: "من زمان ما تشاوفنا"، أي من زمان طويل لم يشف بعضنا بعضا، الذي توسعوا به في تصريف مادة "ش، و، ف"، لتتجاوز دلالة الرؤية التي هي في نفسها تجاوز، إلى دلالة التّرائي التشاركيّة!

ضحك تلامذتي كثيرا، فقلت لهم:

- حوار ممتع؛ أليس كذلك؟ إنها السياحة اللغوية!

نعم، وكنت من قبلُ حدثتهم عن شَغَفي بلهجات شعوبنا الحديثة شَغَفي بلغات قبائلنا القديمة، أن أعرف ما يقولون في الشيء الواحد، مبنى كان أو معنى.

ولم أكد أمضي في منهج محاضرتي حتى لفتتني تلميذة نجيبة أخرى، إلى قول توفيق الحكيم: "من هنا للعصر"، الذي استعمل المكان فيه بدل الزمان واللام بدل إلى؛ فرجعت أنقده لها، ثم تلقفت كلمة "هنا"، فذكرت وجوهها عند شعوبنا، أننا في مصر نقول: "هِنَا"، وفي عمان نقول: ا"هْنَا"، وفي العراق نقول: "هِنَانَا"، وفي الشام نقول: "هُون"،...!

ثم قلت لهم:

- "فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ" -يا أبنائي- سيحوا في أرضكم قبل أرض غيركم، واستمعوا لأهلكم، واستمتعوا؛ صدق الله العظيم!

سِيَاسَةٌ

قلت له:

- قد ذكرت اليوم بخاشقجي وابن سلمان أبا مسلم الخراساني وأبا جعفر المنصور أمس، كان كلا الأولين صوتي الثانيين، ثم استقلا عنهما، فأغرياهما بالقدوم عليهما، فأبيا، ثم أغرياهما فأبيا، ثم أغرياهما فأبيا، فسلطا عليهما من يثقان بهما، فخدعاهما، فجرى عليهما قول أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته "اليمامة والصياد"، التي كنت أُحفّظها ابنتي الدكتورة ريم حين كانت بين الثانية والثالثة:

"فَسَقَطَتْ مِنْ عَرْشِهَا الْمَكِينِ
وَوَقَعَتْ فِي قَبْضَةِ السِّكِّينِ"!

فقال لي:

- احذر أن تكتب ذلك!

فقلت له:

- إن شاء الله!

فقال:

- تكتبه!

فقلت:

- ولماذا لا أكتبه!

فقال:

- لأنك غير مشغول بالسياسة.

فقلت:

- بل مشغول بها، أنا وأنت والناس أجمعون، وهل الإنسان إلا حيوان سياسي!

سِيبَوَيْهِ

كان سيبويه في صغره يتكلم الفارسية، ثم استعرب، فلم يكن أولى عنده من طلب حديث أفصح العرب -صلى الله عليه، وسلم!- فجلس فيه إلى حماد بن سلمة، فأقرأه، فهفا هفوات، فأحرجه بها بين زملائه -وربما سخروا عندئذ منه- فأعرض عنه وعن المحدّثين

جميعا، وجلس إلى الخليل بن أحمد، يطلب علم العربية الذي يسلم به من مثل تلك الأخطاء، ولزم بابه، فكان كلما خرج رآه فقال له:

- أهلا بزائرٍ لا يُمل!

فأخلص الأخذ عنه في حياته والإسناد إليه بعد مماته، وأهمل الحديث، حتى أخلى منه كتابه الذي صار به إمام النحويين، وسن لهم فيه إهمال الحديث، حتى إنه لما احتاج إلى الاحتجاج به جعله من كلام العرب!

فهذان أستاذان: بغَّض أحدهما إلى تلميذه علمه حتى أورده بالإعراض عنه المهالك، وحبَّب الآخر إليه علمه حتى ذكره بعد مماته ذكره في حياته!

شَتَّانَ

قديما كنتُ إذا أظلم الطريقُ وقد سبقني فيه أحدُ رجال الحيِّ تبعتُه أستأنس به وأطمئن حتى أجتاز إلى حيث أريد. وحديثا صرتُ إذا أظلم الطريقُ وقد سبقتُ فيه أحدَ صغار الحي رجع سريعا من حيث جاء خشية أن ألتفت إليه فأختطفه!

الشَّرْحُ

رُبَّمَا رَأَى بَعْضُ مُحِبِّي الْحُكَمَاءِ أَنَّهُمْ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى شَرْحِ حِكَمِهِمْ، وَهُوَ حُسْنُ ظَنٍّ وَاضِحٌ؛ إِذْ هُمْ أَشْبَهُ بِالشُّعَرَاءِ مِنْهُمْ بِالْعُلَمَاءِ، يَكْفِيهِمْ أَنْ يُحْكِمُوا حِكَمَهُمْ، وَلَا يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَشْرَحُوهَا؛ فَعُلَمَاءُ مُحِبِّيهِمْ أَقْدَرُ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، بِمَا أُوتُوا مِنْ مَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَتَحَبُّبٍ. فَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَإِنَّهُمْ إِنْ عَالَجُوا شَرْحَ حِكَمِهِمْ -وَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَ- أَفْضَوْا إِلَى حِكَمٍ أُخْرَى؛ فَكَأَنَّهُمْ بِتِلْكَ لَمْ يَبْرَحُوا! وَإِذَا بَلَغَهُمْ مَا يَشْرَحُهَا بِهِ عُلَمَاءُ مُحِبِّيهِمْ لَمْ يَنْقَضِ مِنْهُ عَجَبُهُمْ: كَيْفَ...، وَكَيْفَ...، وَكَيْفَ...!

شَرَفٌ

في الانتخابات النيابية المصرية الأخيرة (٢٠٢٠)، حظي بعض المترشحين الصالحين بقلوب كثير من الناس، حتى كان كلما شهد محافلهم حملوه على أعناقهم وتغنوا باسمه!

ثم أطلعته النتائج فيما بعد على أثر شريف من آثار خليقة العدل السامية التي فُطر عليها محبوه واحتكموا إليها فيما بينه وبين خصمه الفاسد الراشي: لقد منحوه قلوبهم كلها حتى لم يبق منها شيء لخصمه، فمنحوه أصواتهم!

شَهَادَةٌ

يرجو الشهادة في سبيل الله كلُّ مسلم طمعا في مقام الشهيد الجليل، ويخشى عاقبة اختلاف السُّبل إليها في تقدير طوائف المسلمين. ولا أدري كيف يغفل عن سبيل واضحة تأتيه بالشهادة نفسها إلى حيث يقيم: أن يتخصص لتطوير الأسلحة أو الأدوية أو الطبائع أو الثقافات!

عُرَابِيٌّ

لولا قصة شهامة البدوي التي استعطفَنا بها أحدُ سَأَلَةِ الحافلات في تسعينيات القرن الميلادي العشرين، ما عرفنا أننا ننسب إلى "أَعْراب"، كل "أحمد عُرابي"!

الْعِلْمُ وَالْفَنُّ بَيْنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ

ما أكثر مَنْ يَدَّعون علم شيء، فإذا سألتهم أن يُعَرِّفوه قالوا: علم الشيء هو معرفة حقيقة ماهِيَّتِه. فإذا ذهبت تستزيدهم زادوك حقيقة، ثم ذكروا حقيقة أخرى فزادوك من غير أن تستزيدهم، ثم ذكروا ثالثة ورابعة وخامسة...، حتى حاروا في ماهيته! ولو وقفوك على وجود علم الشيء وجودا مُتَحَرِّكًا، بين تعلم حقائق ماهيته وتعليمها- لاطْمَأَنّوا وطَمْأَنوك!

إن العلم كِيَان خَفِيٌّ مُطْلَقٌ، يكون ويتزايد بعَمَلَيِ التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيم جميعا معا، ويتناقص إذا نقصا، حتى يزول إذا زالا! مثله مثل صِهْرِيجٍ مُحْكَمٍ إلا من مدخل المياه ومخرجها، إذا انقطع الداخل انقطع الخارج، ثم جف الراسب- وإذا اتصل الداخل وانقطع الخارج احتشد الراسب حتى ينقطع الداخل أو ينفجر الصهريج نفسه!

وفن الشيء كعلمه، معرفة حقيقة ماهيته، تتزايد بين يدي مُعَرِّفِه حقائق تلك الماهية، ويحار، حتى يعرفه بين تَعَلُّمِه وتَعْلِيمِه- غير أن مسلكيهما مختلفان؛ فإن العلم يجرى على تحصيل مقدمات عن الشيء، ثم ترتيبها على منهج خاص، ثم إنتاجها نتائج هادئة

طبيعية واجبة التقدير- فأما الفن فيشق الغيب عن النتيجة شقا ثائرا غريبا مدهشا، بلا مقدمات ولا ترتيب ولا إنتاج!

وكل شيء في هذا الوجود، فله علمه وفنه، رفيعا كان هذا الشيء ككل فضيلة أو وضيعا ككل رذيلة، وماديا كان كحركة الحيوان أو معنويا كلغة الإنسان؛ ومن ينبغي أن يُطْلَب فَنُّه وعِلْمُه بين عَمَلَيْ تَعَلُّمه وتَعْلِيمه، وإلا بقي الطالب حيران، يَتَلَفَّت فيَتَفَلَّت منه الزمان!

غَايَةٌ

في مسجد صلاح الدين بحي المنيل من القاهرة الباهرة ثمانينيات القرن الميلادي العشرين، كنت أسمع خطيبه الثائر الجليل الدكتور عبد الرشيد صقر -رحمه الله، وطيب ثراه!- يذكر طلب العلم، ويتبرأ ممن لا يجتهد في القراءة حتى تحمر عيناه؛ فكنت أجتهد ولا تحمر عيناي، حتى أفضيت إلى هذا الزمان الذي نَشطتُ فيه لقراءة الكتب الإلكترونية نشاطا كبيرا واحمرت عيناي، فمن لي بشيخنا أُسُرّه ببلوغ الغاية!

غُسْلُ الْجَامِعَة

وإلى من تلجأ الأرض إذا اغبرت!

هل أقدر على غسلها من السماء؟

وهو مشهد يُعظّمه العمانيون، ويتركون لشهوده كل شيء!

ومن عَمَّنَ تَعَمَّنَ!

فلم يلهني عن صلاة العصر في شهود الغسل، لا رعد، ولا برق!

بل صعدت بعد الصلاة بسيارتي إلى أعلى ما تبلغه، وتطرَّفتُ بها حتى أضبط المنظر، ولم أعبأ حين دُست الأرض بغَرَق ولا شَرَق، تَشَوُّفا إلى صورة المسجد الجامع ومباني التدريس، جناحاه إلى مباني عمادة القبول والتسجيل وكلية الآداب والعلوم الاجتماعية عن يمين القادم منه إلى المصوِّر، ومبنى كلية التجارة والاقتصاد عن يساره، والقلبُ حدائقُ إثرَ حَدائقَ إثرَ حدائقَ!

فَضِيحَةٌ

في أعمال "منهجية البحث"، لهذا الفصل (خريف ٢٠٢٠)، قرأت لأحد الطلاب مقالا طيبا ممتعا، ليس فيه من أخطاء زملائه شيء! ثم خطر لي أن أبحث في الإنترنت عن بعض عباراته، فإذا المقال لأستاذة جامعية، قد أخذه الطالب كله إلا حواشيه ومراجعه؛ فألغيته، وعاقبت الطالب! ثم قلت له ولزملائه:

- مثلما يدل عليكم الصواب يدل الخطأ، ومثلما يجني عليكم عدم الصواب يجني عدم الخطأ!

فِهْرٌ

ذهب محمود محمد شاكر أستاذنا أستاذ الدنيا -رحمه اللّٰه، وطيب ثراه!- بعقب ولادة ابنه يُسجل اسمه، فوجد في مكتب التسجيل موظفَيْنِ مسلما ونصرانيا، ذكر لهما أنه يريد تسجيله باسم "فِهر"، فأما المسلم فعجِل إلى السخرية منه، وأما النصراني فاستفهمه؛ فلما أفهمه أنه اسم "قُرَيْش" الذي تَسَمَّت به قبيلتُه، أَكْبَرَه!

قَصَصِيَّةُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

حيلة من لا حيلة له الصبر، وما أكثر ما صبرت على الأبحاث العلمية الأفقية، التي تجاور الفصول فيها ولا تراكب؛ فلا يكون أعظم لديها من أن يستقل كل فصل من فصولها بقصد من قصودها، ثم لا شيء غير ذلك!

ألم يأن لهؤلاء الباحثين أن يعلموا أن قصودهم هذه الكثيرة التي يفرحون ببلوغها، يكاد بعضها يلغي بعضها، حتى إذا فرغ من قراءة أبحاثهم متلقوها، ونظروا في أيديهم لم يجدوا غير القصد الأخير من الفصل الأخير!

ألا فليعلم هؤلاء الباحثون أنهم مبتلون بجزئية منهجٍ لا علاج لها إلا توريد الأوراد اليومية من الأعمال القصصية، التي تشتمل على سلاسل متآخذة متكاملة من الأحداث المتنامية، التي تبدأ على نشأتها ثم تتصاعد إلى أزمتها ثم تتهابط إلى انفراجتها، فإذا فرغ منها متلقوها بقُوا في دوامتها وكأنما اتصلت بهم شحنتها الكهربية؛ فلا تدعهم حتى يتمغنطوا! نعم؛ وما ألطف عجب أستاذنا الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف -رحمه اللّٰه، وطيب ثراه!-

لأبحاث أحد تلامذته في غيرها من الأبحاث، كيف أزاله عنها بأنه يصطنع لها مثلما يصطنع الأفلاميون السينيمائيون، يُعدُّها مثلما يُعدُّ الأفلامَ مؤلفوها، ثم يعالجها مثلما يعالجها سينارستوها وحِواريُّوها وممثلوها، ثم يراجعها مثلما يعيشها مشاهدوها!

قِطَّةٌ بِنْتُ كَلْبٍ

كلب+قطة=قطة بنت كلب، قط+ كلبة= كلب مقطقط!

وراء اختلاف الأسلوبين رغبة المازح في توظيف ما في "بنت كلب" من سبّ، وما في "مقطقط" من تدليل، ولاسيما أنهما متناقضان؛ إذ القطة أحق بالتدليل من الكلب، والكلب أحق بالسبّ من القطة، بهذا جرت العادة، حتى إن الناس يدلّلون بقطة ويسبّون بكلب -وإن دخل رجلٌ الجنةَ في كلب، ودخلت امرأةٌ النارَ في قطة- ولكنهم قدموا حكم المُلْحة على حكم العادة!

كَالْفَاخِرَةِ بِحِدْجِ رَبَّتِهَا

من العرب علماء هاجروا في أرض الله الواسعة، وخالطوا غيرهم طويلا، وتعلموا، وعلموا، حتى صاروا كأنما وُلِّدوا ولادة جديدة. ومن العرب علماء لم يهاجروا، ولم يُولَّدوا، ثم كانوا في مقامات الاستجاد العربي الطريف يفخرون زُورًا بأولئك العلماء المهاجرين المُولَّدين، على مقتضى المثل القديم: "كالفاخرة بحِدج رَبَّتها"، والحِدْجُ مَركبٌ نِسائيٌّ!

ولا يرتاب عاقل في أن هؤلاء المقيمين غير المُولَّدين لو أصابوا لاستقدموا أولئك المهاجرين المُولَّدين، وأشركوهم في أبحاثهم، فاستفادوا، وأفادوا، وحُقَّ لهم عندئذ أن يفخروا بما أنجزوا.

واللغة كصاحبها، تفعل مثلما يفعل، وهي مجاز عنه، أشبه شيء بالحقيقة، تقول: لغة فلان قوية أو ضعيفة، أي فلان قوي أو ضعيف، ولغته غنية أو فقيرة أي هو غني أو فقير...، وهلم جرا! لا يجوز أن تدعي اللغة العربية لنفسها ما اكتسبته لُغَويّاتٌ (مكوِّنات) منها هاجرت عنها، حتى تستقدمها وتشركها في متنها فتستفيد وتفيد، ويحق لها عندئذ أن تَدَّعي مكتسباتها.

ولا بأس في قدوم هذه اللغويات المهاجرة، بأن تصطحب كلَّ ما تُرجم إلى لغتها أو صِيغ على وَفقها، ما بقي الاحتكام في اتساع متن اللغة لذلك كله، إلى الاستيطان والاستفادة والاستعمال. أما البأس فبأن ترسل اللغة العربية "معجمها التاريخي"، يطوف على "لغوياتها المهاجرة" حيث هاجرت، يَتكفَّفها فَضْلَ مُكتَسَباتها، مثلما يتكفف العرب فَضْلَ صندوق النقد الدولي، ثم يعود به إليها، لتفخر به!

كُفْرَانٌ

كلما سمعته يُنكر على رب العالمين -سبحانه، وتعالى!- وعلى رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- ما لا يعجبه من أصول الإسلام وفروعه، ذكرت المثل العربي التعبيري: "أكفر من حمار"، الذي ذُكر في شرحه أن حمارا رجل صعق البرق أبناءه، فقال: لا أعبد ربًّا فعل هذا بأبنائي!

كَلَامُ رُسُلٍ

قبيل عصر اليوم (١٤٤٤/١/٢٤= ٢٠٢٢/٨/٢٢)، قرأت على بعض حاضريَّ هاتين الرسالتين:

- "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك! أما بعد، فإني قد أُشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون"،
- "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى! أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين"-

مأخوذا ببلاغة الجواب النبوي المسكت، فقال:

- ولكن لرسالة مسيلمة طلاوتها!

فقلت له ساخرا:

- نعم، أليس كلام رُسُل!

فاحمر وجهه، واستخفى بالضحك الشديد!

الْكَلِمَةُ

أول ما جالست محمود محمد شاكر أستاذنا أستاذ الدنيا -رحمه الله، وطيب ثراه!- كنت أرتبك ارتباكا شديدا، ولاسيما في حضرة ضيفانه الكبار الطارئين، وأعيا بأمري كله! تغدينا مرة غداء من لا يخشى الجوع، ثم جاءنا الشاي، فتحرجت أن يديره على مثلهم غيري، فأسرعتُ إلى إبريقه أفرغه في أكوابه، وأسكّرها، غافلا عن أن ملعقة التسكير غير ملعقة التذويب -ولم يكن في قومي مثل هذا الأدب- وبادرني عَرَقي؛ فجذبت من مناديل العلبة المهيأة، فخرج لي أكثر مما أريد، فجعلت أدخل ما زاد ولا يَدخل، فأغريتُ ابن أخيه الخطيب الأديب الأريب الأستاذ عبد الرحمن شاكر -رحمه الله، وطيب ثراه!- بأن يسأل:

- ما الذي إذا خرج لم يدخل؟

فأجابه أحد أصحابه الساخرين:

- معجون الأسنان!

ولم يرد غير الكلمة التي يملكها المتكلم ما لم يخرجها، فإذا أخرجها ملَكَتْه!

كِنَايَاتٌ قَاتِلَةٌ

من كنايات جبابرة المصريين المعاصرين إذا أراد بعضهم من بعض قتل أحد، أن يقول له: رَيَّحُو (أَرِحْهُ)، وكأنه بدا له أنه تعب من الحياة، فأحب أن يزيلها عنه لعله يرتاح منها! ومن هذا الباب عند الليبيين (إخوة المصريين)، أنه قيل في قتل حَرَس القذافي لمقتضى الصدر الإمام الشيعي، أنهم فهموا خطأً قوله لهم فيه: "اهتموا به"! وقديما قديما كان بنو سعد يسمون الغدر "كَيْسانَ" -والكَيْسانُ في متن العربية العاقلُ- فإذا أراد بعضهم من بعض قتل أحد نادى: يا كَيْسَانُ، فيغتاله! قال فيهم النَّمِر بن تَوْلَب:

"إِذَا كُنْتَ فِي سَعْدٍ وَأُمُّكَ مِنْهُمُ غَرِيبًا فَلَا يَغْرُرْكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدِ
إِذَا مَا دَعَوْا كَيْسَانَ كَانَتْ كُهُولُهُمْ إِلَى الْغَدْرِ أَدْنَى مِنْ شَبَابِهِمُ الْمُرْدِ"!

كَأَيَّتَانِ

كلما خرجت من مكتبي رتبت ما ينبغي لي عمله بحيث يكون ذهابي واحدا وإيابي، وتذكرت كأيتين لم تكن أمي -رحمها الله، وطيب ثراها!- تفتأ تعيدهما علي:

- "ما لك كأنك تعدّ الخطا"!
- ما لك كأنك تمشي على قشر بيض"!

أما الكأية الثانية عن بطئي فقد حملتني على تعود الإسراع، وأما الكأية الأولى عن استثقالي فقد حملتني على تعود تقدير المسافة قبل تهيئة الخطوة!

لَوَازِمُ

في لزوم دقائق أداء العبادات فوائد لا ينكرها إلا معاند. ومن ألطف ما أستلطف الآن ذكره، الإشارة بالإصبع السبابة في تشهد الصلاة؛ فإن المصلي ربما غفل عن نص التشهد في موضعه فقرأ سورة الفاتحة، وربما غفل عن سورة الفاتحة في موضعها فقرأ نص التشهد، فلا ينبهه في هذه الغفلة إلا إشارته، ولا في تلك إلا عدم إشارته!

مَارَادُونَا

في مجلس الرئاسة الكوبي التقى فيدل كاسترو وديجو مارادونا، ولم يلبث هذا أن ألقى إلى ذاك بكرة قدم، ليتلقفها حفيا باسما متطلعا إلى المجد، ومثلما فعلا يفعل غيرهما عجما وعربا!

وقديما كان يلتقي في مجلس الإمارة الأمير والشاعر، فلا يلبث هذا أن يلقي إلى ذاك بقصيدة عصماء، ليتلقفها حفيا باسما متطلعا إلى المجد! ألا ما أشبه الليلة بالبارحة!

مَأْزِقُ الصَّحَفِيِّ الْمُتَحَرِّرِ

كأني بالصحفي المتحرر حبيس مكتبه، غريق سيل المقالات الواردة إليه في مشكلة ثائرة، ينظر في هذه مرة، وفي تلك أخرى، فيبتئس! كيف يلائم بين ما فيها كلها من آراء، وهي متناقضة! أم كيف يقطع بنشر أي منها، وهي متفاضحة! أمَا كان الأحرى

بأصحابها أن يتآلفوا بما اتفقوا فيه، وأن يتعاذروا فيما اختلفوا فيه، متى كان الخير غايتهم! أما يرحمون ذلك المسكين!

مُبَاعَدَةٌ

مَرْحَى بِمَنْ طَرِبُوا لِلْفَنِّ فَاقْتَرَبُوا مَرْحَى وَلَوْ نَصِبُوا لِلْعِلْمِ لَاغْتَرَبُوا

مُجَاسِرَةٌ

يؤثر طلاب العلم أن يقيدوا أنفسهم في ذرا الرسائل العلمية خشية أن يتخطفهم الكسل أو يهوي بهم الملل في مكان سحيق، حتى إن بعضهم ليطلب الدكتوراة بعد الدكتوراة فالدكتوراة، بل ربما طلب بعضهم الماجستير بعد الماجستير فالماجستير! نعم؛ وقد كنا نادى الأول: يا دكتور فلان، فصرنا نناديه: يا دكاترة فلان! لا بأس، ولكن لماذا غفلنا عن الآخر المسكين؟ ألا يمكن أن نناديه: يا مجاسرة فلان، ولاسيما أنه يوحي بجسارته على طلب ماجستير أخرى في حين ينتظر منه طلب الدكتوراة الأولى!

مَحَبَّتُنَا

في مكتبي من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية من جامعة السلطان قابوس، أواخر عام ٢٠١٨ الجامعي، سمعَتني الدكتورة لينغ لي وانغ تلميذتي الصينية النجيبة، أجيب مهاتفة ابنتي الدكتورة ريم من الصين، وعرفَت أنها مقبلة على الزواج، وظنت خطيبها غير مسلم، فقالت وقد تهلل وجهها:

- ما أروع هذه الأريحية!
- بل هو مسلم، ولا يجوز أن يكون غير مسلم!
- ولماذا، ألا يكفي أن يتحابّا؟
- إن محبة كل شيء عندنا متفرعة من محبة ربنا!

مُسَاجَلَاتٌ

بمحاضرتي المرجوة "حسن كامل الصيرفي أخو الناي والبنفسج"، أغريت أحبابي قائلا:

- أحبابي، إياكم أن تحضروا؛ فقصر البارون مزار سياحي عالمي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

فإذا الدكتور العراقي عبدالوهاب محمد علي العدواني، يعتذر قائلا:

- لَوْ كُنْتُ فِي مِصْرَ كَانَ الشَّوْقُ حَرَّكَنِي لِذَا الْحُضُورِ وَلَكِنْ شَطَّتِ السُّبُلُ

فأجيبه:

- اَلْبَيْتُ بَيْتُكَ مَهْمَا شَطَّتِ السُّبُلُ وَالْفَنُّ وَالْعِلْمُ وَالْأَحْلَامُ وَالْأَمَلُ

وإذا الدكتور فرحان المطيري، يعتذر قائلا:

- سَكَنْتُ أُكْتُوبَرَ الْأَقْصَى عَلَى فَنَنٍ مِنَ الْجَمَالِ فَعَادَ الشَّوْقُ يَشْتَعِلُ
مَنْ لِي بِقَصْرِكَ يَا الْبَارُونُ أَنْزِلُهُ وَأَنْتَ لِلشِّعْرِ وَالْآدَابِ تَرْتَجِلُ
أَتَتْ إِلَيْكَ حَثِيثًا مِنْ شَوَارِدِهَا رُوحِي وَأَقْبَلَ قَلْبِي وَهْوَ يَبْتَهِلُ
إِنِّي بِمِصْرَ وَهَذَا الشَّوْقُ حَرَّكَنِي إِلَى الْحُضُورِ وَمَا شَطَّتْ بِيَ السُّبُلُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ جَسَدِي فَالرُّوحُ بَيْنَكُمُ سَكْرَى بِكَاسِ الْهَوَى الْمَشْمُولِ يَنْتَقِلُ

فأجيبه:

- لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فَاكَ الْيَنْثُرُ الذِّكَرَ الْبَيْضَاءَ حَسْبِيَ هَذَا الْقَوْلُ الْعَمَلُ

وإذا الأستاذة نعمة أحمد، تعتذر قائلة:

- لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ أَمْرِي كُنْتُ أَحْضُرُهَا نَفْسِي تَتُوقُ وَلَكِنْ شُغْلُنَا شَاغِلْ

فأجيبها:

- قَدْ نَابَ عَنْكِ وَأَرْبَى بَيْتُ مُنْعِمَةٍ يَعِيشُ فِي ظِلِّهِ الْمَحْفُولُ وَالْحَافِلْ

وإذا السحرُ قد ارتد على الساحر!

مُعَايَرَةٌ

لله عندي ثلاث بنات وابنان اثنان، تغضب إحداهن على أحدهما، فتقول:

- الواحدة من بناتك بمئة رجل!

فأقول لها:

- نعم -لله الحمد والشكر!- والواحد من ابنيَّ بمئة امرأة!

فتحار قليلا، إذ تضرب مئة المرأة من نصيبهما في مئة الرجل من نصيبهنَّ، ليكون الواحد منهما بعشرة آلاف رجل، ولا ترتاح للعبارة!

مَكْتَبِي

في "عَيلَم" مكتبي العامر من جزيرة الروضة بمصر العتيقة، زارني أخي، وأنكر عليَّ ما يراه من اضطراب ترتيب كتبي؛ فأنبت عني في جوابه ابنَه الذي لقّنتُه إياه من قبل، فقال له:

- هذا التصفيف غير المرتب مقصود؛ فلو كان مرتبا لذهب طالب كل كتاب إلى كتابه، واشتغل به عن غيره، فأما إذا لم يكن كذلك فسيفتش عن الكتابِ الكتبَ كلَّها، وتظل منه دائما على بال؛ لعله يقرأ ما لم يكن يريد، أو يريد ما لم يكن يقرأ!

مَكْلَطٌ

ذكر الذهبي في "ميزان الاعتدال"، أن أبا بكر البندنيجي محمد بن حمد بن خلف (المتوفى عام ٥٣٠ الهجري)، تَحَنبَلَ، ثم تَحَنَّفَ، ثم تَشَفَّع؛ فلُقِّب "حَنْفَشًا"! فذكرت أن عَيلَمًا (مكتبنا العامر بجزيرة الروضة من مصر العتيقة، حوالي عام ١٤٣٨ الهجري)، اقتحمه عليَّ الأطفالُ، ولاعبتهم -فكان ملعبا- وجُعنا فيه فأكلنا ما تيسَّر -فكان مطعما- فاستحق بذلك كله جميعا معا، أن يلُقب "مَكْلَطًا"، على وزن "مَسْمَط"!

مَقَامُ الْمُدَاوَمَةِ

ينبغي أن يُمَيَّز من الناس وحدَه كلُّ من إذا أحب عملا فأقبل يعمله داوم على عمله؛ فليس أدلَّ على صدق المحبة من المداومة، ثم ليس أحرى بإنجاز العمل ممن داوم على عمله، وهذا المنجز مأجور، وذاك الصادق محبوب.

كيف ينتظر مِن عملٍ محبةً أو أجرًا مَن عمله ثم كَفَّ؛ ألا يخاف تهمة الإخلال أو شبهة الكذب!

يشتغل ليلَ أحدِ أيامه ونهارَه كليهما جميعا، بالصلاة، أو قراءة القرآن الكريم، أو الدراسة، أو الكتابة، أو محاضرة المتعلمين والمتثقفين، أو الاسترزاق، أو عيادة المرضى، أو زيارة الأهل والأصدقاء، أو إجابة السائلين، أو خدمة المحتاجين،...- ثم يكفّ عن ذلك الدَّهْرَ الدَّاهِرَ كأن لن يعود إليه، وينتظر منه الأجر أو المحبة؛ "فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ"؛ صدق الله العظيم!

إن المداومة من معالم الصبر الذي استثنى الحق -سبحانه، وتعالى!- المُتواصِين به في سورة العَصر، من الوقوع في الخُسر، وهي شرط أَحَبِّ الأعمال إلى الحق -سبحانه، وتعالى!- في جواب رسوله -صلى الله عليه، وسلم!- سؤالَ من سأله عنه، وهي نصيحة العرب القديمة: "عَوَّدتَّ كِنْدَةَ عَادَةً فَاصْبِرْ لَهَا"، التي حَذَّروا قطعَها بنصيحتهم البديعيّة الحديثة: "قَطْعُ الْعَادَةِ عَدَاوَةٌ"!

"جاء ثلاثةُ رَهْطٍ (ثلاثة رجال)، إلى بيوت أزواج النبي -صلى الله عليه، وسلم!- يسألون عن عبادة النبي -صلى الله عليه، وسلم!- فلما أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها (رأوها قليلة)؛ فقالوا: وأين نحن من النبي -صلى الله عليه! وسلم!- قد غُفر له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تَأَخَّر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهرَ، ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء؛ فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء؛ فمن رغِب عن سُنتي (أعرض عنها) فليس مِنِّي"؛ صدق رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

ألا فليتخفَّف مَن خشي الكَفَّ، فـ"إِنَّ الْمُنْبَتَّ (الذي استعجل ركوبته حتى أهلكها قبل الغاية)، لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهرًا أَبْقَى"؛ يمتنع من الطعام والشراب إلا قليلا؛ فينحُف من فَوْرِه، ثم لا يلبث أن يعود أسمنَ مما كان، ولو تقلّل ولم يمتنع لرَشُقَ على مَهَلِه، ثم لم يزدد إلا رَشاقةً!

مِنْ بَرَكَاتِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

بمركز الفيزياء النظرية الدولي في إيطالية، اجتمع الدكتور ميراب الجيورجي والدكتور هشام صديقي السوداني الكريم الفاضل، وائتلفا، وتصادقا، حتى صارا يتزاوران. ومرة دعا

الدكتور ميراب صديقه إلى الطعام ببيته، فذهب، وهناك كانت زوجه وابنه ذو خمسة الأعوام.

استأذنه داعيه ليعين زوجه على إعداد الطعام، وبقي معه ابنه.

بالإنجليزية كان الصديقان يتفاهمان، ولا يعرف هذه الطفل غير الجيورجية، وكان متوقِّدا متحمِّسا، فبقي يتكلم مبتهجا بصديق أبيه، وكأنه هدية الإنسانية الخفية، التي أرادت بها التكفير عن كبيرة قَطْعِهِ من أهله وبلده، والدكتور هشام لا يعرف من الجيورجية إلا مثلما يعرف هذا الطفل من السودانية، ولكنه ثَقُلَ عليه ألا يكافئ شيئا من تحمسه أو توقده!

أخرج الدكتور هشام من جيبه ورقة وقلما -وقد كانت بقيَتْ له من فن الرسم أثارة قديمة- وجعل يخطط والطفل كله عيون على الورقة، حتى إذا ما استوت له صورة قطة وميزها الطفل، طار بها إلى أبويه، وقال كلاما كثيرا ميز منه الدكتور هشام كلمتَيْ "صُورَتِي" و"بِسَّة"، هكذا، مثلما ننطق الأولى بمعناها، وينطق بعضنا الثانية بمعنى قِطّة!

لما وجد الدكتور ميراب عجب الدكتور هشام الشديد قال له:

- إن في لغتنا الجيورجية كلمات عربية كثيرة، أدخلها فيها المماليك الذين تنقلوا بين جيورجية ومصر ذاهبين آيبين -قال- حتى اسمي أنا هذا "ميراب"، ما هو إلا كلمة "مِحْرَاب"، العربية!

مُوَاطَنَةٌ

أحسن معاملتي تمكن لدينك من عقلي وقلبي ونفسي وتقديري وهذا عين المواطنة!

مَوْلَانَا الْفَقِيهُ الْمُفْتِي جُولْدْتِسِيهَرُ الْمُسْتَعْرِبُ الْمَجَرِيُّ الْيَهُودِيُّ

زعموا أنه بلغ بجولدتسيهر (١٣٤٠=١٩٢١)، المستعرب المجري اليهودي، تفقُّهُه أنه كان يفتي المسلمين -إي والله!- وأنه أفتاهم مرة أن من يُضطر إلى القتل دفاعا عن نفسه قاتلٌ، ولا ريب أنه لا يقصد وصفه بالقتل وقد قَتل -فهو جليّ- بل يريد أنه مجرم مستحق العقاب!

فتوى كانت وما زالت نافعة جدا للبغاة المعتدين المتجبرين!

نَبَاهَةٌ

بين ٢٣ و٢٧ من أكتوبر عام ١٩٩٩، كانت ندوة الأدب العماني الأولى بجامعة السلطان قابوس، التي شاركت فيها بمقالي "القافية الموحدة المقيدة وكلمتها في الشعر العماني"، وقد دُعي إليها الأستاذ جمال الغيطاني رئيس تحرير جريدة أخبار الأدب المصرية، فجاء بكاميرا مصورِ الجريدة.

أحسب أنني ابتهجت بعرض مقالي متملِّحًا ببعض ما أنعش الحاضرين -وكان مدير جلستي هو الدكتور علي مدكور عميد كلية التربية عندئذ، الذي سرني بتعليق طيب- ثم نزلت عن منصة المحاضرين إلى مقاعد الحاضرين، فلم يكد يطمئن بي مقعدي حتى نظرت عن يساري فإذا الأستاذ جمال الغيطاني يوجه إليَّ كاميراه يهيِّئها لصورة يجعلها في تحقيقه للجريدة عن الندوة، فلما تراءينا انصرف عني، لتظلّ الغفلة أجدر بالشهرة من النباهة!

نَعْلَا إِبْلِيسَ

مثلما ينام هذا القط الجسور أو الغرير، كنت أنام منذ أربعين عاما على ظهر سيارة جي إم سي -ولكنها مسوّرة الظهر- قاصدا الحج من حفر الباطن شمالي المملكة العربية السعودية، وقد انتعلتُ نَعلين حمّاميّتين مناسبتين!

ألفا ومئتي كليومتر نهبت بنا هذه السيارة الجبارة الأرض، حتى شغلني عن نعليَّ جبروتُها، فتَزحلقَتا، فلم أحُلّ الحرم إلا حافيا!

ثم رأيت في مرمى الجِمار من جهلة الحجاج من يتطوع برمي نعليه جمرتين زائدتين، ففتشت عن مساقط الجمار حتى عثرت عليها، فنفذت إليها، ثم تخيّرتُ من النعال، ليرجع الناس من الحج بهدايا الحرم، وأرجع بنعلي إبليس!

نِقْمَةٌ

منذ عشرين عاما تقريبا مررت من أمام مستشفى الطلبة بميدان الجيزة إلى ما خلف كلية الزراعة قاصدا كلية دار العلوم من ممر ضيق يتجه اتجاها واحدا ولا يتسع لأكثر من سيارة واحدة.

ولم أكد أقترب من عُقْدته حتى واجهتني سيارة نقل ركاب (ميكروباص)، تريد عكس الاتجاه، ولم تملك إلا أن تتقهقر لسيارتي الضخمة (الشبح)، ثواني معدودات عادت بعدها إلى مرادها، ولكنني لمحت في المرآة تبّاع السائق على سلم سيارته المسرعة يلوّح ناقما على ذلك المتكبر الذي عاق سبيله تقدمه!

وَصْفَةٌ لَهْجِيَّةٌ

تحبُّباً إلى العمانيين الطيبين أُكلمهم بلهجتهم في غير مواقف المحاضرة، وهيهات؛ فكلما كلمت بها أحدا منهم قال لي: أَأُرْدُنِيٌّ أنت!

ثم حللتُ عَمّان العاصمة الأردنية -ومادة عُمَان وعَمَّان المعجمية واحدة (ع، م، ن)، وكلتاهما صيغة مبالغة- عضوا بفريق معجم الدوحة التاريخي الدولي، فحرصت على الإنصات إلى الأردنيين كلهم أجمعين أكتعين أبصعين!

لقد وقفت على ما علق بالعربية في سفرها التاريخي المهيب، من وعثاء التغير أصواتا وصيغا ومفردات ومركبات صغرى ووسطى وكبرى، وأنها كلما أغربت أسرعت، وكلما أسرعت تضمنت، وكلما تضمنت استعجمت!

فأما لهجة الأردن فوسط بين شدة ما عن يمينها وخفة ما عن يسارها، ومن راودها عن نفسها فخلط قليلا من المصرية بقليل من العمانية خرجت له -إن شاء الله!- صريحة واضحة غير متحرجة ولا متأثمة ولا مترددة!

وَفَاءٌ

أَعْظَمُ الْمُغْتَنِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ مَنْ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يُشْرِكَ فِي غِنَاهُ مَنْ شَرِكَهُ فِي فَقْرِهِ!



أَمَلٌ خَالِدٌ

رحم الله أمل دنقل الشاعر العربي الأصيل المجدد!

نعم؛ فقد كان على رغم استحداثه كثيرا من الأساليب الفنية والأدوات البنائية، شديد الحرص على نبوعها من باطن الثقافة العربية الإسلامية. ولقد تقلبت به الدنيا، ولم يلق لها بالا، بل مضى في سبيله تلك لا يلوي على شيء، حتى ترك لطلاب الشعر تراثا متكاملا متماسكا، عقدا متآخذ الحبات، يذكرونه به حبة حبة، ويجرون مجراه خطوة خطوة، ثم ينطلقون مثله أحرارا، لا يستعبدهم شيء، ولا يستصعبون شيئا!

وأخي الكريم الفاضل الدكتور محمد راضي الشيخ مثال صادق!

نعم؛ فقد عاش مشغوفا بالثقافة العربية الإسلامية فنونا وعلوما ومهارات، لا تشغله عن شغفه أسمار الدنيا ولا أباطيلها، حتى انتزع من بين براثنها مكانه ومكانته، وهذا كتابه في شعر أمل دنقل، أكبر شواهد ذلك؛ فقد انقطع له يسمع ويرى ويثبت وينفي، حتى خيل لنا أستاذنا الدكتور علي عشري زايد -رحمه الله، وطيب ثراه!- يحاضرنا مرة أخرى!

أحييك يا دكتور راضي، وأدعوك إلى دراسة شعرائنا الأصلاء المجددين جميعا مثل هذه الدراسة؛ عسى الله أن يفتح بك مغاليق القلوب والعقول، فتستنير حق الاستنارة، وتخلص حق الإخلاص، وتعمل حق العمل!

بَحْرُ الْمُتَدَارَكِ

كان أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى عام ١٧٥ (٧٩١) -رضي الله عنه!- كلما وقف على قصيدةٍ من الشعر العربي انضبطتْ له لغتُها، لحَّنها بما يعرض وزنها الذي تخرَّجت به، وهو القائل: "الْعَرُوضُ عَرُوضُ الشِّعْرِ لأَنَّ الشِّعْرَ يعْرَضُ عَلَيْهِ"؛ فهو مِعْرَاضٌ يُعْرَضُ عليه الشعرُ، وكأنه جهاز عرض الأشعة الطبية الذي تجلى فيه مواضع الصحة ومواضع السقم جميعا معا. وما عُرِضَ على المِعْراضِ فقد عُرِضَ عليه المِعْرَاضُ -هذا قانون اللغة العربية- وكأنه مصفاة تمييز الأخلاط التي لا ينفذ منها إلا الخِلْط الصافي؛ فالعروضُ مِعراضُ جَلْوةٍ إذن ومِعراضُ صَفْوة.

ولم يلبث الخليل بعدئذ أن وقف بمنهجه العام في التقليب، على علاقات ما بين أنماط وزن الشعر (البحور)، متقاربةً ومتباعدةً؛ ففرق بين المتباعدة، وجمع بين المتقاربة، في خمسة أقسام منسقة تنسيقا دائريا -وقد دَلَّ بذلك على فهمه طبيعة الشعر المستديرة المتميزة من طبيعة النثر المستقيمة، وهي الفكرة العبقرية التي لم ينتبه لها علماء الشعر إلا في القرن الميلادي العشرين!- انتبه به مع الأبحر المُعملة في الشعر العربي، إلى الأبحر المهملة منه، على النحو الآتي:

١) دائرة المختلف، وفيها تتتابع خمسة الأبحر الآتية:

- الطويل، فالمديد، فالمهمل الأول، فالبسيط، فالمهمل الثاني.

٢) دائرة المؤتلف، وفيها تتتابع ثلاثة الأبحر الآتية:

- الوافر، فالكامل، فالمهمل الوحيد.

٣) دائرة المجتلب، وفيها تتتابع ثلاثة الأبحر الآتية:

- الهزج، فالرجز، فالرمل.

٤) دائرة المشتبه، وفيها تتتابع تسعة الأبحر الآتية:

- السريع، فالمهمل الأول، فالمهمل الثاني، فالمنسرح، فالخفيف، فالمضارع، فالمقتضب، فالمجتث، فالمهمل الثالث.

٥) دائرة المتفق، وفيها يتتابع البحران الآتيان:

- المتقارب، فالمهمل الوحيد.

ولقد كان من منهج الخليل ألا يُسَمِّيَ من بحور الشعر -والاسم مُصطلَح على المُسمَّى- إلا المُعْمَل الذي يحتاج في معالجته إلى تسميته، فأما المُهْمَل الذي لم يُسَمِّه فلم يُعمله أحد حتى يعالجه. وقد بلغ من شدة تحرّيه وتحقيقه ونزاهته، أنْ لم يعُدَّ من الإعمال إعمالَه هو نفسه، فخلا من "أثر ميل الباحث"، الذي يعيب البحث العلمي الإنساني!

لقد قال الخليل -وكان شاعرا وَسَطًا- من مهمل دائرة المتفق (لُنْ فَعُو [فَاعِلُنْ] لُنْ فَعُو [فَاعِلُنْ] لُنْ فَعُو [فَاعِلُنْ] لُنْ فَعُو [فَاعِلُنْ]×٢)، وكأنما يُمثِّل البيت منه وقد خُبنت تفعيلاته كلها (حُذف من كل منها حرفها الثاني الساكن):

[فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

سُئِلُوا فَأَبوا فَلَقَدْ بَخِلُوا فَلَبِئْسَ لَعَمْرُكَ مَا فَعَلُوا

أَبَكَيْتَ عَلَى طَلَلٍ طَرَبًا فَشَجَاكَ وَأَحْزَنَكَ الطَّلَلُ

وقال وكأنما يُمثِّل البيت منه وقد قُطعت تفعيلاته كلها (حُذِف من كل منها حرفها الأخير الساكن، وسُكِّن ما قبله):

[فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ فَاعِلْ]

هَذَا عَمْرٌو يَسْتَعْفِي مِنْ زَيْدٍ عِنْدَ الْفَضْلِ الْقَاضِي

فَانْهَوْا عَمْرًا إِنِّي أَخْشَى صَوْلَ اللَّيْثِ الْعَادِي الْمَاضِي

لَيْسَ الْمَرْءُ الْحَامِي أَنْفًا مِثْلَ الْمَرْءِ الضَّيْمَ الرَّاضِي

ولكنه جعله في دائرته مُهْمَلا، فَسَنَّ للفنانين (الشعراء)، سُنَّةَ إعمال ما لم يُعمَل -إذ لو لم يفعلوا لضاق عليهم رُحْبُ فنِّهم- وَسَنَّ للعلماء (العَروضيّين)، سُنَّةَ إهمال ما لم يتواتر على النظم منه الشعراء وعلى قبول نظمهم مُتلقُّوه، إذ لو لم يفعلوا لاتَّسَعَ عليهم ضبطُ علمهم!

ثم بعد زمان طويل أُعْمِلَ، فاحتيج إلى تسميته -وَلَا خَلِيلَ لَهُ- فسُمي أسماء متعددة مختلفة، لَصِقَ به منها اسمُ المُتَدَارَك أي المُسْتَدْرَك، الذي لم يجر مجرى أسماء البحور الخليلية، وكأنما أبى العَروضيّون بعد الخليل أن يُسلِّموا لأحدهم بمشابهته! وجُعل شعارَه هذا البيتُ اليتيم الذي سلمت تفعيلاته كلها -وما أشبهه بما روي آنفا للخليل!-:

جَاءَنَا عَامِرٌ سَالِمًا صَالِحًا بَعْدَ مَا كَانَ مَا كَانَ مِنْ عَامِرِ

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ]

ولم ينتشر للمتدارك في الشعر العَمُوديّ ذِكْرٌ إلا بمثل قول الحصري القيرواني:

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

[فَاعِلْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

الذي لم يشتمل على تفعيلة سالمة واحدة، فأما تفعيلة "فَعِلُنْ" فقد تيسَّر للعروضيين القول بخبنها (حذف حرفها الثاني الساكن). وأما تفعيلة "فَاعِلْ" فقد تعسَّر عليهم توجيه ما أصابها:

فقال بعضهم بقطعها (حذف حرفها الأخير وتسكين ما قبله) -وهو ما أستخفه- وفيه أن القطع علة، والعلة -وإن لم تلزم- منحصرة في الأطراف دون الأحشاء!

وقال بعضهم بخبنها كالتي سبقت "فَعِلُنْ"، ثم إضمارها "فَعْلُنْ" (تسكين حرفها الثاني المتحرك)، وفيه أن زحاف الزحاف -وإن لم يمتنع- تكلف وإجحاف!

وقال بعضهم بتشعيثها ["فَالُنْ"، "فَاعُنْ"]، (حذف أحد حرفيها الثالث والرابع المتحركين)، وفيه أن التشعيث علة، والعلة -وإن لم تلزم- منحصرة في الأطراف دون الأحشاء!

والذي يبدو لي أن النظم العَمُودِيّ من هذا البحر، مر بمراحل ثلاث:

١) مرحلة التَّجْرِيب، وفيها كان البيت منه سالم التفعيلات.

٢) مرحلة التَّلْطِيف، وفيها كان البيت منه سالم التفعيلات ومخبونها ومقطوعها، أو مخبونها، أو مقطوعها.

٣) مرحلة اللَّطَافَة، وفيها كان البيت منه مخبون التفعيلات ومقطوعها.

مثال مرحلة اللطافة: "يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ..."، السابق الذي ملأت قصيدته الدنيا وشغلت الناس -وما زالت- حتى أُلِّفَتْ في معارضاتها الكتب. ومثال مرحلة التجريب: "جَاءَنَا عَامِرٌ سَالِمًا صَالِحًا..."، السابق. وأمثلة مرحلة التلطيف "سُئِلُوا فَأَبَوْا فَلَقَدْ بَخِلُوا..."، و"هَذَا عَمْرٌو يَسْتَعْفِي مِنْ..."، مثالا الخبن فالقطع السابقان، وهذا الثالث الذي لم أكن أظن أنه يكون، حتى عثرت للكيذاوي العماني المتوفى عام ٩٨٣ (١٥٧٥)، على هاتين القصيدتين:

خَلِّنِي أَنْدُبُ الرَّسْمَ وَالطَّلَلَا وَدَعِ اللَّوْمَ مِنِّي وَالْعَذَلَا

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

وَانْظُرَانِي بِرَبْعِ الْحَبِيبِ لِكَيْ أَقْتَضِي الْفَرْضَ مِنْهُ وَأَنْتَفِلَا

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

مَرْبَعٌ طَالَ مَا قَدْ صَحِبْتُ بِهِ الْعَيْشَ فِي غَفَلَاتِ الصِّبَا خَضِلَا

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

وهي ثلاثة وثلاثون بيتا، قد سَلِم فيها بعضُ التفعيلات وخُبن بعضٌ.

أَشْجَاكَ لِعَاتِكَةٍ طَلَلٌ مِثْلُ مَا لَاحَ لِلنَّاظِرِ الْخِلَلُ (...)

[فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ]

لَائِمِي لَائِمِي غَيْرَ مَا عَالِمِ(ي) صَهْ عَنِ الْهَائِمِ(ي) حِينَ يَبْتَهِلُ

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ]

لَا تَلُمْ فِي الْهَوَى مُدْنَفًا قَدْ ثَوَى وَسَعِيرُ الْجَوَى فِيهِ يَشْتَعِلُ

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ]

وهي ثمانية وعشرون بيتا، قد سَلِم فيها كذلك بعضُ التفعيلات وخُبن بعضٌ.

وعثرتُ للحبسي العماني المتوفى عام ١١٥٠ (١٧٣٧)، على هاتين القصيدتين:

كُنْ مُجِيدًا لِمَدْحِ النَّبِيِّ تَنَلْ مَا تُحِبُّ وَتَبْلُغْ بِذَاكَ الْأَمَلْ (...)

[فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ]

طُوبَى لَهُمْ طُوبَى لَهُمْ يَا حَلِيفَ النُّهَى إِنْ شَكَكْتَ فَسَلْ

[فَاعِلْ فَعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ]

بُشْرَى لَهُمْ بُشْرَى لَهُمْ وَالْخَيْرُ لَهُمْ وَالسُّؤْلُ حَصَلْ

[فَاعِلْ فَعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ]

وهي سبعة عشر بيتا، قد سَلِم فيها بعض التفعيلات وخُبن بعضٌ وقُطع بعضٌ.

سُكَّانُ عُمَانَ لِسَيِّدِهِمْ كُلُّهُمْ فِي الْمُلْكِ بِلَا ثَمَنِ

[فَاعِلْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

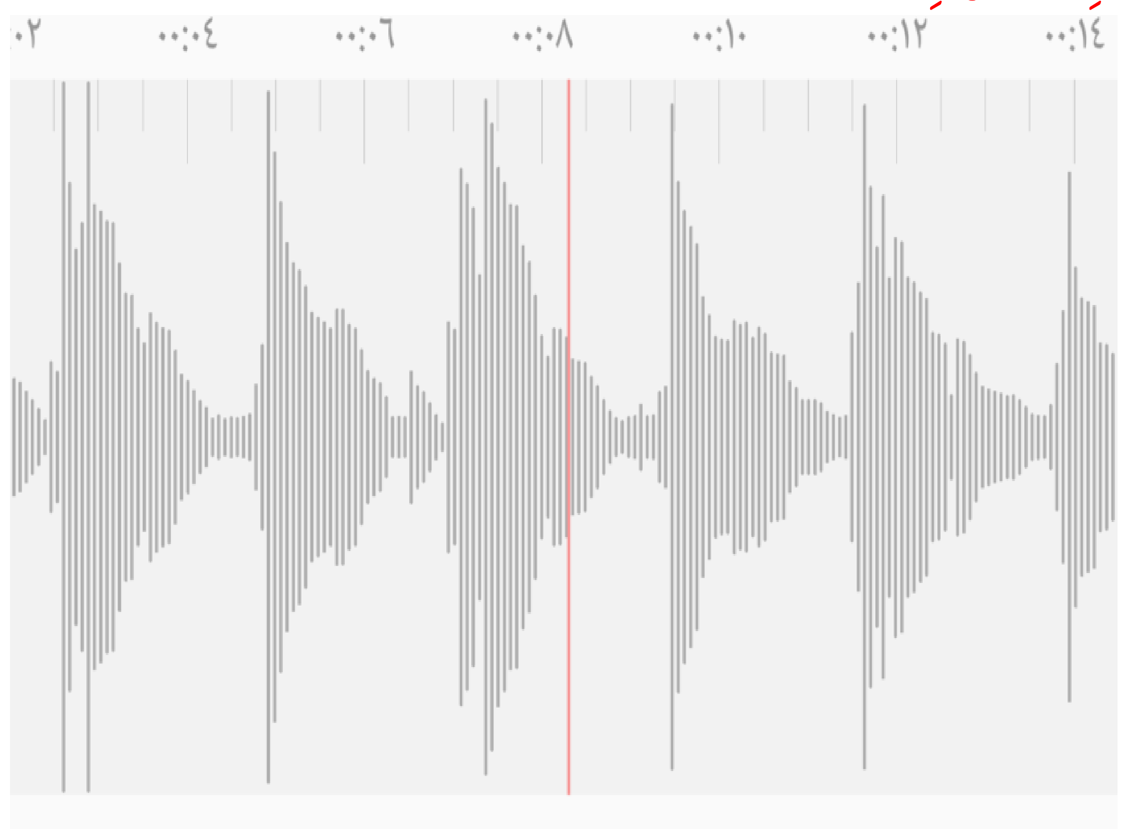
لِفَتَى سُلْطَانَ الَّذِي خَضَعَتْ لِسَطَاهُ مُلُوكُ بَنِي الزَّمَنِ

[فَعِلُنْ فَاعِلْ فَاعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

ذَمِرٌ فَطِنٌ مَلِكٌ يَقِظٌ عَارِفٌ بِالْفَرْضِ وَبِالسُّنَنِ

[فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ]

وهي خمسة أبيات، قد سَلِم فيها كذلك بعض التفعيلات وخُبن بعضٌ وقُطع بعضٌ.



من علامات تحقق الباحث بالبحث عدم انخداعه بظواهر الأشياء عن بواطنها، ومن علامات توفيقه في تحققه هذا أن يقف على أجزائها فأجزاء أجزائها فأجزاء أجزاء أجزائها وهلم جرا؛ حتى إن كثيرا من الاكتشافات المكرمة بأرفع الجوائز لم يكن غير ذلك. وفي هذا المقام ينبغي أن نذكر أبا عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي عبقري اللغة العربية الذي لم نَرَ عبقريا فَرَى فَرِيَّه!

لقد دلنا تراث علم الخليل بالشعر على أنه استبطن شعر العالم كله حتى وقف على شعر العرب بعد شعر العجم، وشعر العرب كله حتى وقف على شعر الشاعر بعد الشاعر، وشعر الشاعر كله حتى وقف على القصيدة بعد القصيدة، والقصيدة كلها حتى وقف على البيت بعد البيت، والبيت كله حتى وقف على الشطر بعد الشطر، والشطر كله حتى وقف على التفعيلة بعد التفعيلة، والتفعيلة كلها حتى وقف على الوتد والسبب، والوتد والسبب كليهما حتى وقف على المتحرك والساكن. ولولا ذلك الذي اشتمل في وعيه على نتاجه مع نتاج من قبله، ما استطعنا الآن أن نطمئن إلى علمنا بالشعر!

ولو أدرك الخليل زماننا لاستبطن المتحرك والساكن كليهما حتى وقف على الذَّبْذَبات، والذَّبْذَبَات كلها حتى وقف على النَّأْمَات...، ثم قرن بأوائل فصول كلامه في نمط من الوزن والقافية، صورتَهما في أحد أجهزة التسجيل أو القياس الصوتي، مثلما فعلت في الصورة الملحقة بتفعيلات بيت من بحر الطويل؛ فكانت جديرة أن ندعي لها على الحقيقة ما سميتُه من قبل: "البطاقة العروضية"!

بَيْنَ مُسَلْسَلَيْ "قِيَامَةُ أَرْطُغْرُلَ" وَ"مَمَالِكُ النَّارِ"



أَذَكِيًّا تَرَاهُ أَمْ لَوْذَعِيًّا عَبْقَرِيًّا يَظَلُّ يَفْرِي فَرِيًّا

مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَانِ أَيْهَمَ لَا يَرْكَبُ إِلَّا الْمَجْهُولَ يَهْوِي هُوِيًّا

لَقَحَتْ أُمُّهُ بِبَذْرَةِ جِنِّيٍّ فَأَضْحَى يَطْوِي الْمَآلَاتِ طَيًّا

"قِيَامَةُ أَرْطُغْرُلَ" مسلسل تركي مُتَلْفَز، أُريد باسمه الدلالةُ على نهضة قائد تركي إلى بعث قومه من حالٍ أشبه بالموت إلى حال يطلبون فيها المجد. و"مَمَالِكُ النَّارِ" مسلسل عربي مُتَلْفَز، أُريد باسمه الدلالةُ على احتراق الدول التي كان ينبغي لها أن تتوالى فتعادت وتحاربت. وقصة مثل هذه الدول المتحاربة المتفانية معروفة كثُرت فيها الأقوال والأفعال حتى مُلَّت، وإن وجبت على كل جيل حكايتها! أما قصة نهضة ذلك القائد التركي فمجهولة تُتَلمَّس لها الأقوال والأفعال تَلَمُّسًا، ومن ثم لا يخرج بفائدة جديدة إلا أحدُ مُشاهِدي المُسَلْسَلَيْنِ دون الآخر.

مسلسل "ممالك النار" عشر ساعات ونصف تقريبا في أربع عشرة حلقة على أربعة عشر يوما (٢٠١٩/١١/١٧- ٢٠١٩/١١/٣٠)، ومسلسل أرطغرل أربع وتسعون ومئتا ساعة تقريبا في مئة وخمسين حلقة على أربعة أعوام ونصف تقريبا (٢٠١٤/١٢/١٠- ٢٠١٩/٥/٢٩)؛ وكأنما يريد أحد المُسَلْسَلَيْنِ أن يُربّي مشاهديه تربية جديدة -ولاسيما أنه يكمله الآن مسلسل آخر- على حين لا يريد الآخر غير تَنْبِيههم!

شعار المسلسل التركي الكلمة الدالة على الانبعاث بالحروف اللاتينية وأولها حرف "دي= D" مرسوما على هيأة قوس تتوالى بعدها الحروف وكأنها مرسَلة عنها، وتحتها كلمة أرطغرل بالحروف أنفسها -أولها مكسور كتابة (E) على رغم انفتاحه نطقا (A) - معترضةً أحشاءَ سيفٍ يشمله أُفُقُ حرف "دي= D" من كلمة الانبعاث، ثم إن ذلك كله إذا أُميل ليقف على قاعدة حرف "دي= D"، بدا مثل مصباحٍ مقبضُه السيفُ المحشوُّ بكلمة أرطغرل على أرضٍ من غيوم توشك أن تمطر؛ فلم يكن أدل منه على اقتران الانبعاث بوضوح الرؤية وشدة الإقبال!

وشعار المسلسل العربي هلال من ريشتَيْ كتابةٍ متصلتَي العَجُزَيْنِ مسنونتَي الصدرين، مفتوح للأعلى كالذي يعتلي قباب المساجد رمزا إلى رفعة الإسلام الطموح، قد التفَّ عليه أربعَ التفافاتٍ حبلٌ مفتولٌ مثلما تلتف مشنقة على رقبةِ محكومٍ عليه بالإعدام شنقًا إشارةً إلى نهاية طومان باي بطل المسلسل ورمزًا إلى تقييد طموح الإسلام، والهلالُ مشتعل من كل جهةٍ نارًا مُتَلَهِّبَةً لا يخبو أُوارها، تحته اسم المسلسل "ممالك النار" مكتوبا بخط أشبه بالكوفي، في هيأة تحصينات حربية، على أرض من سواد دامس يوشك -لولا النارُ وما تطاير لها من شَرار- أن يَدْهَمّ!

مسرح مسلسل "قيامة أرطغرل" الدنيا المفتوحة: سهولا وجبالا، ومزارع وحدائق، ونهارا وأنهارا ووديانا، وأهازيج وتلاوة قرآن، ما دام المقام أرطغرليًّا- والقلاع والحصون المغلقة: أبوابا وجدرانا، ومسارب وممرات، ونارا ودخانا، وظلالا وسوادا، وعويلا وترانيم كنسية، ما دام المقام غير أرطغرليٍّ. ومسرح مسلسل "ممالك النار" القلاع والحصون المغلقة: أبوابا وجدرانا، ومسارب وممرات، ونارا ودخانا، وظلالا وسوادا، وعويلا -وإن خلا من الترانيم الكنسية- مهما كان المقام! ولذلك استغنى مسلسل "قيامة أرطغرل" بأقل كثيرا جدا مما احتاج إليه مسلسل "ممالك النار"، من نفقات الإعداد، من حيث اصطُنع لهذا دون ذاك مسرحُه كلُّه اصطناعًا!

لغة مسلسل "قيامة أرطغرل" التركية الحديثة على رغم ما اشتملت عليه من معالم التركية العثمانية التي كانت أكثر اشتمالا على ذخيرة اللغة العربية قبل أن يُجرِّدها منها مصطفى كمال أتاتورك بحملته التَّغريبيَّة. ولقد كنت أستمع إلى المسلسل مُطابَقًا (مُدَبْلَجًا)، ثم استسخفت بعض ما وجدت في مطابقته من إهمال ونقص، فتحولت إلى الاستماع إليه

تركيا مترجما. ولغة مسلسل "ممالك النار" عربية معاصرة على رغم ما اشتملت عليه من شواهد قرآنية وحديثية وشعرية معدودة. ولقد اجتهد الممثلون ألا يخطئوا، وبلغوا مبلغا لا بأس به ولاسيما ممثل قنصوه الغوري. واختلفت لُكْنات ممثِّلي المصريين، عن حسن إشارة إلى اختلاف أصولهم، وتوفيق إلى الاستفادة من مجيدي الفُصحى غير المصريين.

جهد كاتب مسلسل "قيامة أرطغرل" كبير، له في كل خطوة موقف إنساني يُسرِّب منه إلى المتلقي ما شاء من عبارات فنية وفلسفية وتربوية مثيرة ومؤثرة، على شدة ولعه بتوليد الفتن الغريبة وتفجير المفاجآت العجيبة. وجهد كاتب مسلسل "ممالك النار" محدود بالسعي الحثيث إلى توليد شواهد الإجرام العثماني الشيطاني، من خلال حرص شديد على مضادّة حال سليم الأول السلطان العثماني بحال طومان باي السلطان المملوكي المصري.

لقد صُنع مسلسل "ممالك النار" على عجل مشتعل يُبادر أواخرَ مسلسل "قيامة أرطغرل" الذي صُنع على مهلٍ مطمئنّ مُبشّرًا بمسلسل يأتي من بعده اسمه "قيامة عثمان"، سلسلة لا يُدرَى أين ستنقطع، فكأنما عَجِلَ مسلسلُ "ممالك النار" إلى اعتراضها؛ لعله يقطعها؛ فها هي ذي حلقاتُ مسلسل "قيامة عثمان" قد تَسَلْسَلَتْ، وسبحان علام الغيوب!

تَثْوِيرُ التَّكَامُلِ الطَّبِيعِيِّ

إذا تأملنا معا "لاعب النرد، قصيدة متحركة"، مشروع بعض طلاب الجامعة الألمانية بالقاهرة لسنة ٢٠١٣- (http://mogasaqr.com/?p=5768) وهو عمل متقن معجب باهر مدهش، لا تمل النفس تأمله انتفاعا واستمتاعا- وقفنا منه على سر الابتكار المُنَمِّي للغة العربية، الواجب كشفه ونشره على الناس وتثقيفهم به- أنه "تثوير التكامل الطبيعي".

نعم؛ فهو نص شعري قصصي مسرحي تشكيلي موسيقي مترجم متلفز! جمعت بين عناصره رؤية إخراجية واحدة، كفلت تفجير طاقات اللغة العربية، بمزجها بما يمازجها عادة في مسيرة حياة أهلها. ولا يخفى على باحث لغوي أو غير لغوي، أن ابتكار الفنون والعلوم والمهارات موكول إلى النظر في أطراف ما بينها جميعا، لتأليف الجديد من مفرداتها المختلفة.

ومن ثم أنبه هنا على خمس درجات من "التكامل الطبيعي"، ينبغي أن يتدرج عليها مسار تثويره شيئا فشيئا، حتى يبلغ الغاية بعد الغاية من غايات التنمية المطلوبة، التي ينبغي ألا تنتهي.

أما الدرجة الأولى فتكامل الفنون اللغوية (الشعر والقصة والمسرحية...)، إبداعا، وتمثيلا.

إنه إذا كان في الفنون اللغوية الغنائية (الشعر وما أشبهه)، ما يثير الحنين، وفي الفنون اللغوية السردية (القصة وما أشبهها)، ما يثير الحركة، وفي الفنون اللغوية الحوارية (المسرحية وما أشبهها)، ما يثير المشاركة- فإن في الجمع بينها ما يكفل اجتماع الحنين والحركة والمشاركة التي تكتمل بها دائرة المشاعر الفَعَّالة، وسواء أكان هذا الجمع في الإبداع أم كان في التمثيل.

أما في الإبداع فإن الفنان المتحقق بحقيقة الفن، إذا آمَنَ باحتشاد المشاعر الإنسانية المختلفة في كل موقف، ورأى امتزاجها فيه امتزاج عناصر الماء، وصَدَّقَ نفسَه- تآلفَتْ في كل عمل من أعماله الفنونُ المتخالفة، وتَضافرَتْ على الوفاء بطبيعة المشاعر الإنسانية. وأما التمثيل فإن المؤدِّي الحريص على انتباه المتلقين جميعا وإمتاعهم أو إقناعهم، ينبغي أن يأتيَهم من كل سبيل ويحتجَّ عليهم بكل دليل؛ فلا يقتصرَ على أمثلة بعض الفنون اللغوية

دون بعض، فيُمِلَّ بعضا وينفِّر بعضا، فلا خير في فِقْدان مَنْ ربما حَمَلَ هو دون غيره فيما بعدُ، عبءَ الإصلاح والتنمية!

وأما الدرجة الثانية فتكامل العلوم اللغوية (الفنية [العروض، والبديع، والبيان، والمعاني، والنقد...]، والعرفية [الأصوات، والصرف، والدلالة، والنحو...])، بحثا، وتدريسا.

إنه إذا كان في العلوم اللغوية الفنية (العروض والبديع والبيان والمعاني والنقد)، ما يصف اللغة في حال حركتها، وفي العلوم اللغوية العرفية (الأصوات والصرف والدِّلالة والنحو)، ما يصف اللغة في حال ثباتها- فإن في الجمع بينها ما يكفل اتِّزان الحركة بالثبات وانطلاق الثبات بالحركة، وسواء أكان هذا الجمع في البحث أم كان في التدريس. أما في البحث فإن الباحث المتحقق بحقيقة العلم، إذا آمن بضرورة التأصيل والتحديث والتنمية، لم يستغن عن إضافة الظواهر اللغوية الفنية المتحركة في مادة بحثه إلى الظواهر اللغوية العرفية الثابتة، ولا عن إضافة نظريات بحثهما العلمية بعضها إلى بعض في تحرير رأيه، حتى يستوعب الماضي ويتمكن من الحاضر ويتقدم إلى المستقبل.

وأما في التدريس فلا غنى بالمدرس عن عرض الظواهر اللغوية العرفية الثابتة، حتى يتعلم الطالبُ منه التحليلَ والتركيبَ والتقويمَ- ولا عن عرض الظواهر اللغوية الفنية المتحركة، حتى يتعلم الطالبُ منه التتبُّعَ والتثبُّتَ والتقبُّلَ.

وأما الدرجة الثالثة فتكامل المهارات اللغوية (الاستماع، والتحدث، والقراءة، والكتابة)، انفرادا، واجتماعا.

إنه إذا كان في المهارتين اللغويتين الشّفاهيتين (الاستماع والتحدث)، ما يُؤلِّف بين الحاضرين ثقافةً وراحةً ومتعةً وقوةً وقدرةً وفضلًا، وفي المهارتين اللغويتين الكِتابيتين (القراءة والكتابة)، ما يُؤلِّف بين الغائبين- فإن في الجمع بينها ما يؤلف بين الناس كلهم أجمعين، المنقسمين أبدا على حاضرين وغائبين، وسواء أكان هذا الجمع بينها جميعا معا، أم كان بين بعضها دون بعض.

أما الجمع بينها جميعا ففيما يحدث كثيرا من ممارستها كلها ممارساتٍ متوازيةً؛ فربما تفاوتت درجتا ممارسة كلِّ مهارتين، فعوَّضت زيادة درجة ممارسة المهارتين الكِتابيتين نقص درجة ممارسة المهارتين الشفاهيتين، والعكسُ بالعكس.

وأما الجمع بين بعضها دون بعض ففيما يحدث قليلا من موازاة ممارسة مهارة الاستماع بممارسة مهارة الكتابة، وموازاة ممارسة مهارة القراءة بممارسة مهارة التحدث؛ فليس لوجود مثل هذه الأحوال الخاصة من تفسير سوى تكامل المهارات.

وأما الدرجة الرابعة فتكامل الفنون والعلوم والمهارات اللغوية (كل ما سبق)، انقساما، واتحادا.

إنه إذا كان في الفنون اللغوية (الغنائية والسردية والحوارية)، انطلاقٌ وارتيادٌ واقتحامٌ، وفي العلوم اللغوية (الفنية والعرفية)، متابعةٌ وتفسيرٌ وتأصيلٌ، وفي المهارات اللغوية (الشفاهية والكتابية)، توصيلٌ وتمكينٌ وتخليدٌ- فإن في الجمع بينها ما يكفل تنمية اللغة العربية، وسواء أكان هذا الجمع في وعي شخص واحد أم كان في وعي شُخوص مؤتلفين.

أما الجمع بينها في وعي شخص واحد فهو عين اليقين وأمنية المتمنّين وينبوع التنمية؛ إذ في مَصْهَر الوعي الحقيقي العميق الواحد، تجمع مَوادُّ التَّحْصِيل كلُّها؛ فتتضح آفاق الرؤية، وتتصل مفاصلُ الرسالة، وتستقيم مرامي الأهداف.

وأما الجمع بينها في وعي شخوص مؤتلفين فهو عين الحكمة ورجاء المضطرين ومظنة التنمية؛ إذ في ائتلاف الوُعاة المُتعدّدين، ما يكفل بينهم تضافرَ آفاقِ الرؤية -فتتضحُ مِنْ خفاء- ومفاصلِ الرسالة -فتتصلُ مِنِ انقطاع- ومرامي الأهداف؛ فتستقيمُ مِنِ اعوجاج.

وأما الدرجة الخامسة الأخيرة فتكامل الفنون والعلوم والمهارات اللغوية وغير اللغوية (كل ما سبق، وكل ما سواه مما يجري مجراه)، تعاقبا وتزامنا.

يتخيل الإنسان كل شيء ماديّ يريده، ثم يعمله، ولا اعتبار لما لا يريده؛ فليس مِن همّه تخيُّلُه ولا عملُه. أما في أثناء تخيله ما يريده فاللغة من أمامه، ترتاد له المجاهل، وتؤنسه بها. وأما في أثناء عمله ما تخيله فاللغة من خلفه تقوم عليه، وتعتني به، وترعاه. فإذا وفَّاها حقها في أثناء التخيل، انتفع بها في أثناء العمل، وإلا فاجأه ما أشكل عليه فخبط في علاجه خبط عشواء؛ فأخطأ أو أصاب، وأحسن أو أساء.

أما تقدُّمُ اللغة في أثناء التخيل وريادتُها، فمن حيث يتوجّه فيها التفكيرُ بالتعبير؛ فكُلَّما خَطَرَ تعبيرٌ أو تكوَّن خَطَرَتْ فكرةٌ أو تكوَّنت، ولا تقوم للخواطر غيرِ اللغوية قيمةٌ كبيرة مؤثرة، حتى تتحول إلى خواطر لغوية، وكأن العقل مَكْتَبِيٌّ يُفهرِس الكتبَ بكلمات وعبارات مِفتاحيَّةٍ، ثم يستغني بها عنها!

وأما عنايةُ اللغة في أثناء العمل ورِعايتُها، فمن حيث يجتمع فيها التفكير والتعبير، فتصير مُرَكَّباتهما كنموذج الصنعة الذي يضعه الصانع أمامه ليقلده، ولا يفتأ يُراجِعُه ويقُايِسُه ويُطابِقُه.

وعلى سبيل المشاركة في تثوير التكامل الطبيعي الذي في امتزاج اللغة العربية وغيرها من أَمْزاج الحياة الإنسانية، أنشأتُ موقعي الإلكتروني(mogasaqr.com) ، الذي قدمتُ فيه أعمالا كثيرة جدا -وما زلت أقدم- من هذه النمط التثويري، لي ولغيري، في صَفَّين مستويين من الأبواب المختلفة المؤتلفة، التي أسأل الحق -سبحانه، وتعالى!- أن يُخلِصها لنفسه، ويتقبلها في الصالحات، آمين!

تَصْنِيفُ أَسْمَاءِ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سور القرآن أربع عشرة ومئة، تَسَمَّتْ كُلٌّ منها بكلمة واحدة، على منهج الإيجاز العربي في التسمية بما يُيسر المعاملة، إلا سورة "آل عِمْران" التي تَسَمَّتْ باسمين متضايفين، من حيث كان مشغلتَها آلُ عمران لا عمران، وإن انتسبوا إليه. وعلى رغم علاقة معاني هذه الأسماء كلها برسائل نصوص سورها الأربع عشرة والمئة، تعددت علاقات مبانيها بنصوصها، على النحو الآتي:

١) أسماء غائبة المباني، وهي ثلاثة (٢,٦٣٪): الفاتحة، والأنبياء، والإخلاص، لا ذكر لألفاظها في نصوص هذه السور.

٢) أسماء واردة المباني، وهي أحد عشر (٩,٦٤٪): الإسراء، والسجدة، والمجادلة، والممتحنة، والطلاق، والتحريم، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والشرح، والزلزلة- مذكورة الألفاظ في نصوص سورها، على أنحاء تصريفية غير التي هي عليها.

٣) أسماء حاضرة المباني دون "أل"، وهي أحد عشر (٩,٦٤٪): الزمر، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والفتح، والصف، والعلق، والهمزة، والنصر، والمسد- مذكورة الألفاظ في نصوص سورها، من غير "أل" المقترنة بها.

٤) أسماء حاضرة المباني، وهي التسعة والثمانون الباقية (٧٨,٠٧٪)، المذكورة ألفاظها في نصوص سورها، وليس أدل على مراعاة حضورها فيها من حكاية لفظ "المؤمنون" الذي هو مضاف إليه في عبارة "سورة المؤمنون"، على ما هو في هذا الجزء من سورته "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ"، ولفظ "المنافقون" الذي هو مضاف إليه في عبارة "سورة المنافقون"، على ما هو في هذا الجزء من سورته "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ"، ولفظ "المطففين" الذي هو نائب فاعل في قول السيوطي في "أسرار ترتيب القرآن": "أُخِّرَتِ المطففين"، على ما هو عليه في هذا الجزء من سورته "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ"!

لقد اتضح أن منهج القرآن الكريم في التسمية على أصل دلالة مادة "س، م، و"، التي منها الاسم والتسمية -وهو المنهج العربي المبين- إنما هو أن يَرفع للتمييز السورةَ المرادة، باسمٍ مأخوذ من نصها، مثلما كان العربي يسمي قصيدته بجزء من نصها ولاسيما أول

مطلعها، وفي ذلك ما يُرجِّح في كلمة "سورةٍ" نطقَها معتلة غيرَ مهموزةٍ ودلالتَها على المنزلة العالية.

ولقد سوَّت التسمية في الاستعمال بين الكلِم التي تَسَمَّتْ بها سور القرآن كلها جميعا؛ إذ قد صار بكلٍّ منها تميُّزُ السورة من غيرها وتميُّزُ غيرها منها، فأما أبنيتها اللغوية فبينها اختلاف تصنيفي كبير؛ إذ تنقسم على خمسة أصناف كبيرة: اسم (٧٨)، ووصف (٢٩)، ومُبْهَم (٤)، وفعل (٢)، واسمان (١). ومن داخله انقسم الاسمُ على ثلاثة أصناف صغيرة: عَين (٤٣)، ومعنى (٢٥)، وعلَم (١٠)- والوصف على خمسة أصناف صغيرة: اسم فاعل (٢٠)، واسم مفعول (٤)، وصيغة مبالغة (٣)، وصفة مشبهة (١)، واسم تفضيل (١). ومن داخله انقسم العَينُ على أربعة أصناف صُغرى: مفرد (٢٨)، وجمع (٩)، واسم جمع (٤)، واسم جنس جمعي (٢)- واسم الفاعل على صنفين أصغرين: مفرد (١١)، وجمع (٩)، واسم المفعول على صنفين أصغرين: مفرد (٢)، وجمع (٢)، ذلك كله على التفصيل المرتَّب الآتي:

١) اسم (٧٨):

- عين (٤٣):
  - مفرد (٢٨): البقرة، والحِجر، والكهف، والعنكبوت، والمائدة، والرعد، والنور، والزخرف، والدخان، والطور، والنجم، والقمر، والحديد، والجمعة، والقلم، والإنسان، والفجر، والبلد، والشمس، والليل، والضحى، والتين، والعلق، والعصر، والفيل، والماعون، والمسد، والفلق.
  - جمع (٩): الأنعام، والأعراف، والأنفال، والأحزاب، والزمر، والأحقاف، والمعارج، والحجرات، والبروج.
  - اسم جمع (٤): النساء، والروم، والجن، والناس.
  - اسم جنس جمعي (٢): النحل، والنمل.
- معنى (٢٥): التوبة، والإسراء، والحج، والفرقان، والقصص، والسجدة، والشورى، والفتح، والحشر، والصف، والتغابن، والطلاق، والتحريم،

والملك، والقيامة، والنبأ، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والشرح، والقدر، والزلزلة، والتكاثر، والنصر، والإخلاص.

- علَم (١٠): يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم، ولقمان، وسبأ، ومحمد، ونوح، وقريش.

٢) وصف (٢٩):

- اسم فاعل (٢٠):
  - مفرد (١١): الفاتحة، وفاطر، وغافر، والجاثية، والواقعة، والحاقة، والمزمل، والمدثر، والطارق، والغاشية، والقارعة.
  - جمع (٩): الشعراء، والمؤمنون، والصافات، والذاريات، والمنافقون، والنازعات، والمطففين، والعاديات، والكافرون.
- اسم مفعول (٤):
  - مفرد (٢): المجادلة، والممتحنة.
  - جمع (٢): الأنبياء، والمرسلات.
- صيغة مبالغة (٣): الرحمن، والبينة، والهمزة.
- صفة مشبهة (١): الكوثر.
- اسم تفضيل (١): الأعلى.

٣) مُبْهَم (٤): طه، ويس، وص، وق.

٤) فعل (2): فصلت، وعبس.

٥) اسمان (١): آل عمران.

لقد اتضح أن منهج القرآن الكريم الأغلب في الكلمة التي يختارها من نص السورة ليسميها بها، أن تكون اسما أي كلمة ذات مدلول مفرد -ولاسيما الجسم المَعين- يَخلُص للتسمية عملُه، لا وصفا أو فعلا ذَوَيْ مدلولَيْن مُرَكَّبَيْن، ولا مُبْهَمًا غير ذي مدلول واضح- وأنه إن خالف ذلك الوجه الأغلب خالَفَه لِنُكْتَةٍ بلاغية لطيفة، تستحق التَّنْقير عنها!

تَطَلُّعُ الْمُبْدِعِينَ

يتواضع أهل كل لغة على ما يعبرون به عن أغراضهم، ثم ينشأ بعدهم من ينظر فيما عبروا به، فيجتهد أن يوجهه بما يرى أنه الذي دعاهم إليه، ثم يسعى على أثره غيره، فإما أن يرى رأيَه، وإما أن يرى غيرَه متمسكا بأنه الأجدر بأن يكون هو الذي دعاهم إلى ما عبروا به، ثم يسعى على أثريهما غيرهما، فإما أن يرى هذا الرأي وإما أن يرى ذاك وإما أن يرى رأيا وسطا مشتملا على الرأيين، إما على جهة التوفيق، وإما على جهة التلفيق: أما التوفيق فبأخذ أحسن ما فيهما حرصا على الإتقان، وأما التلفيق فباقتطاع جزء من أحدهما لإلصاقه بجزء من الآخر حرصا على الإرضاء!

ولولا التطلع الإبداعي الذي فُطر عليه بعض الباحثين أو وُفّق إليه، ما تَكَلَّفَ استحداث رأي، ولا تَنَبَّهَ إلى تعدد الآراء؛ إذ كما يستند استحداث الرأي إلى ذلك التطلع الإبداعي يستند إليه تمييزه! ولقد اقتضى المقام عبد الجليل منصوري صاحبَ هذا البحث "الآراء الفردية لنحاة البصرة والكوفة"، أن يكون ثاني الرجلين وهو الشاعر المرهف، من حيث يعرف جلال الجمع بين التخلق بالتطلع الإبداعي ومعرفة المتخلقين به، ويذكر كيف نعد على الأصابع من العرب ومن غير العرب، من جمع في نفسه بين القدرة ومعرفة المقتدرين؛ لعله يضيف إليهم نفسه فيما يستقبل من عمره وعمله!

حَرَكَةُ الْأَخْطَاءِ اللُّغَوِيَّةِ

منذ عشرين عاما جربت تقويم لغة طلاب الجامعة الكتابية تقويما علميا شاملا، على رغم إنكار بعض زملائي عليّ أن أشتغل بكتابة تلامذتي، ولا عجب مع إنكارِ مثلِه أن يستخف بالعمل بعض تلامذتي أنفسهم الذين كنت أجرب تقويم لغة كتابتهم! ولكنني أنجزت ما وعدت، بل رفعته إلى الدكتور سعود الريامي رئيس جامعة السلطان قابوس -فقال كلمته هذه الكبيرة: "هَذِهِ جَامِعَةُ الدُّكْتُورِ صَقْرٍ، يَأْتِيهَا وَقْتَمَا يَشَاءُ"!- ثم نشرته بإحدى المجلات المحكمة، وعاقدت على نشره مكتبة دار السلام خمسين عاما بعنوان "مهارة الكتابة العربية"، وشاركت بنتائجه -وما زلت- في بعض المؤتمرات والندوات والمحاضرات!

واليوم (١٤٤١/٤/١= ٢٠١٩/١١/٢٧)، أجرب ذلك تجربة ثانية، على بعد ما بين همة شبابي وخبرة شيخوختي -وما أصدق كلمة العقاد في مثلها: "زَادَ إِيمَانُنَا بِهَا، وَقَلَّتْ حَمَاسَتُنَا لَهَا"!- وأنَّ أكثر تلامذتي هؤلاء من قسم العلوم الإسلامية بكلية التربية وأقلهم من قسم الإعلام بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، على حين كان أولئك كلهم من قسم اللغة العربية بكلية التربية؛ فما زالت تدعوني إلى تكرار التجربة دواعي "نقد اللغة العربية المكتوبة الآن، في وقت ومكان محددين، على نحو مفاجئ لا تجهيز فيه ولا مراجعة (...)، لطلاب عرب عُمانيّين مُعَيَّنين" -مهارة الكتابة: الفقرة ٨- التي دعتني قديما إلى التجربة الأولى، وما أقرب عدد تلامذتي هؤلاء العشرين من عدد تلامذتي أولئك الستة والعشرين!

أقبلت أوزع على تلامذتي أوراقا خالية متشابهة مناسبة الحجم لجهاز التصوير الرقمي، ثم خطَبتُهم بمقال "مقام المداومة: http://mogasaqr.com/?p=19775"، متأنيا، متحريا من الأداء كل ما يعينهم على تمثُّل المراد، ثم طالبتهم بالتعليق عليه في نصف صفحة دون أن يذكر أحدهم اسمه، ثم أخذت أوراقهم، وتفرغت لقراءة ما كتبوه وتقويمه وتعليق ما يبدو لي عليه بلون أحمر، ثم صورت الصفحات حريصا على وضوح التعليقات كلها، ورفعتها على الحاسوب، ثم استهلكت في إطلاعهم عليها عشر محاضرات؛ فلم تكن المحاضرة تتسع لعرض أكثر من صفحتين؛ إذ يضطرني كل تعليق إلى توجيه، وكل توجيه إلى احتجاج، وكل احتجاج إلى استطراد، وما أكثر ما كنا نقتحم على مظان الاحتجاج شبكتها الإلكترونية المتاحة دائما!

وكلفتهم كلما وقفنا على خطأ فسميناه باسمه المعروف أو استحدثنا له اسما مناسبا، أن يكتبوه بدفاترهم، وينقطوا عن يساره نقطة واحدة لمرة وقوعه الواحدة، فإذا تكرر أضافوا إلى النقطة مثلها وهلم جرا، حتى إذا ما فرغنا قعدنا يقرؤون عليَّ اسم الخطأ فأكتبه وعدد النقط فأثبته أمامه، وما أكثر ما اختلفوا فأخذت برأي الأغلبية أو الأكثرية، فإذا تساووا مختلفين أخذت بالرأي الأكثر نُقَطًا. واستهلكنا في ذلك محاضرتين كاملتين، أُبْتُ بعدهما إلى مكتبي، فصنفت الأخطاء، وآلفت بين مفردات أصنافها جامعًا بين ما يجتمع، ثم رتبتها بأعدادها ترتيبًا هابطًا.

لقد استوى في نتائج هذه التجربة مُتَوَسِّطًا ما وقع بالأوراق العشرين من أخطاء الأسلوب ومن أخطاء الترقيم؛ إذ تَحَصَّلَ من قسمة أربعة وسبعين (عدد كلتا طائفتي الأخطاء)، على العشرين: ٣٫٧؛ فيكون قد وقع في كل ورقةٍ أربعةُ أخطاء تقريبا من هذه، وأربعة من تلك، على النحو الآتي:

- أخطاء الأسلوب (٧٤/٢٠=٣٫٧):
  ١) زيادة ما لا حاجة إليه.
  ٢) إبدال الكلمات.
  ٣) عدم العَنْوَنة.
  ٤) سوء التعبير.
  ٥) سوء الاقتباس.
  ٦) حذف ما لا غنى عنه.
- أخطاء الترقيم (٧٤/٢٠=٣٫٧):
  ١) إهمال علامة الترقيم.
  ٢) إبدال علامة الترقيم.
  ٣) إقحام علامة الترقيم.
  ٤) البدء بعلامة الترقيم.

إنه ليس أصدق من اتفاق أخطاء الأسلوب وأخطاء الترقيم على مقدار واحد؛ فما الترقيم إلا رسم أداء الأسلوب؛ فإذا أصاب الأسلوبَ خطأٌ كان مفهومًا أن يصيب الترقيم ما يخصه مما يشبهه، وهو ما كان:

- ✓ فثالث أخطاء الترقيم بمنزلة أول أخطاء الأسلوب،
- ✓ وثاني أخطاء الترقيم بمنزلة ثاني أخطاء الأسلوب،
- ✓ وأول أخطاء الترقيم بمنزلة ثالث أخطاء الأسلوب وسادسها معا،
- ✓ ورابع أخطاء الترقيم بمنزلة رابع أخطاء الأسلوب وخامسها معا؛

وصدَّقَت أخطاءُ الترقيم أخطاءَ الأسلوب!

ثم تقارب مُتَوَسِّطَا ما وقع بالأوراق العشرين من أخطاء الأصوات والصرف والنحو ومن أخطاء الإملاء والتشكيل؛ إذ تَحَصَّلَ من قسمة ثمانية وخمسين (عدد أخطاء الأصوات والصرف والنحو)، على العشرين: ٢,٩، ومن قسمة ستة وستين (عدد أخطاء الإملاء والتشكيل)، على العشرين: ٣,٣؛ فيكون قد وقع في كل ورقةٍ ثلاثة أخطاء تقريبا من هذه، وثلاثة من تلك، على النحو الآتي:

- أخطاء الأصوات والصرف والنحو (٥٨/٢٠=٢,٩):

١) رفع المنصوب والمجرور والمجزوم.

٢) حذف الروابط.

٣) تقديم ما حقه التأخير.

٤) خطأ صياغة الكلمة.

٥) تذكير الواجب التأنيث.

٦) نصب المرفوع والمجرور.

٧) إفراد الواجب التثنية.

٨) منع صرف المصروف.

٩) تعريف بعض وكل بأل.

١٠) تعريف ما ينبغي تنكيره.

١١) إبدال الأصوات.

١٢) النسب إلى المؤنث بالتاء المربوطة دون حذفها.

١٣) جزم المنصوب.

١٤) فتح همزة إن الواجبة الكسر.

- أخطاء الإملاء والتشكيل (٦٦/٢٠=٣,٣):

١) ترحيل الحركات.
٢) خطأ رسم الهمزة.
٣) تشويه رسم الكلمات.
٤) تخفيف ضبط المشدد.
٥) قطع همزة الوصل.
٦) تقليد رسم المصحف.
٧) ترحيل النقط.
٨) الإخلال بعدد النقط.
٩) نقط ضمير الغائب.
١٠) فصل الواو عن المعطوف.
١١) رسم الصاد دون سن.
١٢) حذف همزة الوصل مما بين حرف العطف والفعل.
١٣) حذف همزة شيء.
١٤) قصر الهمزة الممدودة.
١٥) إلحاق الألف الفارقة بغير المقترن بواو الجماعة.
١٦) إثبات سكون المدغم المنفصل.

إنه ليس أدل على حقيقة تقارب أخطاء الأصوات والصرف والنحو وأخطاء الإملاء والتشكيل، من التباس بعضها على المصنف أيجعله في هذه أم في تلك! وعلى رغم بعد الثاني والخامس والسابع والتاسع والعاشر من أخطاء الأصوات والصرف والنحو عن أخطاء الإملاء والتشكيل، نستطيع أن نجعل:

- ✓ السادس والخامس عشر من أخطاء الإملاء والتشكيل، من وادي الأول والسادس والثامن والثالث عشر من أخطاء الأصوات والصرف والنحو.
- ✓ والأول والسادس والعاشر والسادس عشر من أخطاء الإملاء والتشكيل، من وادي الثالث والرابع عشر من أخطاء الأصوات والصرف والنحو.
- ✓ والأحد عشر خطأ (٢-٥، ٧-٩، ١١-١٤) من أخطاء الإملاء والتشكيل، من وادي الرابع والحادي عشر والثاني عشر من أخطاء الأصوات والصرف والنحو.

ربما كان في ذلك معنًى مِن التسليم لانحسار ممارسة اللغة العربية الآن عن المشافهة وانحصارها في المكاتبة، ولكنني أستنبط منه معنًى من دلالة إتقان المكاتبة باللغة العربية على إتقان المشافهة بها، وأنه ينبغي لمن أراد إتقان المكاتبة بها أن يشتغل بإتقان المشافهة بها!

خَصَائِصُ الْحِوَارِ بَيْنَ الْأَدَبِ وَالسِّينِمَا

الحوار (مبادلة الحديث أداء وتلقيا)، أصل الممارسات اللغوية الاجتماعية كلها، لا تقوم للغة دونه قائمة، ولا تدوم دائمة؛ فلا يستغني عنه الناس في حضورهم، ولا مَن يذكرهم في غيابهم.

أما الناس في حضورهم فمتفرغون بمقامهم لحوارهم (مقالهم)، وأما ذاكروهم في غيابهم فغير مستغنين بحكاية حوارهم عن وصف مقامهم، إلا أن يقوموا في مثله، وهيهات؛ فإنك لا تقفز إلى النهر مرتين!

ولو اقتصرنا في تحصيل أحوال الناس على حضورها لغاب عنا أكثرها ولم يفض بنا تأمل أقلها إلى ما يغنينا. وإذا استطردنا في تحصيلها إلى ذكر من ذكروهم في غيابهم أمكننا أن نجعل من غير المستغنين بحكاية حوارهم عن وصف مقامهم "كتاب الأدب"، ومن مدعي القيام في مثل مقامهم المستغنين عن وصفه بحكاية حوارهم "كتاب السينما"!

إن الأدب فن لُغَوِيّ مفرد، لا يعبر عن أحوال الناس إلا بالمقال المنطوق ليسمع أو المكتوب ليقرأ. أما السينما ففن كُلِّي مركب، يعبر عن أحوال الناس بالمقال في المقام لتعاش. وليس ألطف وأروع ولا أنفس وأنفع من الوقوف على خصائص الحوار بين فن مفرد كالأدب وفن مركب كالسينما، ولاسيما إذا ضمنّا صحةَ الموازنة بينهما باختيار بعض الحوارات المتحدة (الأدبية السينمائية، أو السينمائية الأدبية)، التي يكفل لها تَوارُدَها المشروطَ بينها اتحادُها الواقعُ فيها.

هذه "السراب"، رواية نجيب محفوظ التي نشرها عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف الميلادي (١٩٤٨)، ولم أقرأها إلا بنشرة مكتبة مصر الخالية من البيانات إلا التنبيه على حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل عام ثمانية وثمانين وتسعمئة وألف الميلادي (١٩٨٨)، الواقعة في أربع وثلاثين وثلاثمئة صفحة (٣٣٤)، صغيرة القطع محتشدة الكلم الصغيرة الحجم، يقرؤها المتأني الصبور في ست ساعات تقريبا- قد تحولت عام سبعين وتسعمئة وألف الميلادي (١٩٧٠)، إلى فيلم سينمائي يشغل المُشاهِدَ ساعتين وعشر دقائق، من سيناريو علي الزرقاني وحواره، وإخراج أنور الشناوي.

أقتطع منهما أطول ما اتحد بينهما من حوارات، مقدِّمًا ما قدَّمه الزمان (مقطع الحوار الأدبي الذي كان بين الابن والأم)، مؤخِّرًا ما أخَّره (مقطع الحوار السينمائي الذي كان بين نور الشريف وعقيلة راتب):

(١)

"وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجع في قلبي أعذب الألحان، تملكني شعور بالقوة لا حد له، وازدهاني الغرور والزهو، وحييت في الدقيقة الواحدة دهرا طويلا من السلم. "سأفاتح أمي بالأمر كله"، قلتها بلا خوف ولا تردد، ربما بلا رحمة أيضا، وطرقت الباب، ففتحت لي بنفسها وهي تمتم مبتسمة كعادتها:

- أهلا بنور العين!

وجدتها على الأناقة التي أحب أن تلقاني بها، وتفرست في وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه، واعتراني وجوم وخوف، وقلت لها في تردد غابت عنها أسبابه وبواعثه:

- لننتقل عما قريب إلى مسكن لائق، لأعيدن إليك خدمك وحشمك!

فابتسمت، وقالت:

- هذه أسعد أيام حياتي، لأني أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسي، وعدت إلى الصالة، فجلسنا على كنبة متجاورين وأنا أقول بقلبي "اللهم، عونك ورحمتك"، واستحوذ علي القلق والحياء؛ إنها مهمة شاقة محزنة، ولكن ما منها بد. واسترقت إليها نظرة، فوجدتها آمنة مطمئنة غافلة عما أضمره لها؛ فوخزني الندم، وكادت تخلى عني قوة التصميم، بيد أنني أشفقت من عواقب التردد والاستسلام لدواعي الخور؛ فرميت بنفسي في الهاوية قائلا:

- أماه، أريد أن أحدثك بأمر هام.

ورمقتني بنظرة غريبة خلتها مريبة متوجسة حتى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقوة إلهام خارقة؛ أنمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسي، أم فضحتني نظرة عيني، أم لم يكن هناك شيء مما حسبت وشبه لي الوهم ما لا حقيقة له؟ أما هي فقالت بهدوء وتساؤل:

- خير، إن شاء الله!

وصممت على أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة، فقلت مستشعرا خوفا لا مراء فيه:

- سأتوكل على الله، وأتزوج.

رنت كلمة "أتزوج" في أذني رنينا غريبا أنكرته وأخجلني كأنما تفوهت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هي عينيها إلي في دهشة، واتسعت حدقتاها، ولاح فيهما ذهول وغباء كأنها لم تفهم شيئا، ثم تساءلت:

- تتزوج!

وكنت قد تخطيت أكبر عقبة، فأمكنني أن أقول:

- أجل! هذا ما انتويته.

وندت عنها ضحكة متقطعة، بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت متهدج:

- ما أسعدني بذلك! هذه هي السعادة حقا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم... الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟ مبارك يا بني!

وأزعجني تهدج صوتها واضطراب نبراتها وانفعالها الظاهر، فقلت:

- إني أستأذنك لأني أحب دائما أن تكوني راضية عني.

فهتفت في لهوجة:

- وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي! يا لله أبعد هذا الحب كله أجزى عنه بالتشكك في إخلاصي! ستجدني راضية عنك ولو قتلتني! أتنسى أن حياتي كلها لك!

فازدردت ريقي، وقلت وأنا أختلس منها نظرة قلق:

- إني أعلم هذا وأكثر، يا أماه!

فلاح في وجهها وجوم شديد، وبدا عليها أنها تحاول عبثا أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاصي والداني، وأية أم لا تفرح لزواج ابنها، ولو كانت وحيدة ليس لها سواه! هذه حكمة الحياة، أن أحتضنك العمر كله، ثم أسلمك شابا رائعا لعروسك، إني أبكي من الفرح!

اغرورقت عيناها وهي تتكلم، ونظرت إلى خلال دموعها وكأنها ارتاعت لوجومي، فقالت معتذرة:

- معذرة، يا كامل! ليست هذه بدموع...، إنها دموع الفرح، بيد أنك فاجأتني مفاجأة، ولم تتلطف في إخباري، ولكن لا داعي للتلطف، ألا ترى أني أعتذر بما هو أقبح من الذنب، ليغفر لي ذنبي حبي الكبير وحسن نيتي وقلبي الذي وهبتك إياه، وإن لم تعد بك حاجة إليه! وإنك لتعلم بأني إذا انفعلت أفلت زمام لساني من يدي. إني أهنئك بما اخترت لنفسك. ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إني لا أطيق أن أتصور أنك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمان طويل؟

فقلت وأنا أداري بابتسامة ميتة:

- كلا -يا أماه- ما فكرت في ذلك إلا من زمن قصير، حين بدا لي أني كبرت.

فندت عنها ضحكة هستيرية، وصاحت:

- اسمعوا، يا هوه! كامل يبدو أنه كبر! وأنا! لا بد أني عشت أكثر مما ينبغي!

فتأوهت قائلا:

- أماه، إنك تحزنينني!
- لا عاش من يحزنك! الأم التي تحزن وليدها لا تستأهل نعمة الحياة. ولكنك تقول على نفسك بالباطل وتزعم أنك كبرت! يا لك من طفل مكابر! لكأني أراك تحبو وأنت تركب منكبي، ثم وأنت تختال في بزة الضابط وضفيرتك تتهدل على كتفك، فكيف تدعي الكبر!

فقلت مغتما:

- ألست على عتبة الثامنة والعشرين!
- أصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا لي من امرأة عجوز! لتكن مشيئتك! ومهما يكن من عمرك فستكون أصغر الأزواج وسأفرح بك فرحا ليس وراءه مذهب لفرحان! ولكن ما بالك واجما، أساءك كلامي؟ يعلم الله أني لا أحسن الكلام، ولكن الموت أحب إلي من الإساءة إليك!

فقلت بقلب ثقيل:

- سامحك الله، يا أماه!

فابتسمت، إي والله ابتسمت، وقالت مصطنعة المرح:

- لندع هذا جانبا، ولتقدم الأهم على المهم! أصغ إلي، يا كامل! تزوج بالهناء والسرور، وسأخطب لك إذا أمرتني.

فترددت لحظة، ثم تملكني الضيق، فقلت:

- ليس ثمة خيار، فقد وقع اختياري.

فرنت إلي بدهشة، ولاذت بالصمت مليا، ثم تساءلت:

- متى تم ذلك؟
- منذ زمن يسير.

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب، كأنما عز عليها أن أكتمها هذا الأمر الخطير، ثم خفضت عينيها في استسلام، وسألت بصوت هادئ، بل هادئ جدا:

- من؟
- لا أدري بالضبط. الراجح أنها مدرسة، وهي تقطن العمارة البرتقالي أمام القصر العيني.

فعاودتها الدهشة، وتساءلت:

- ألم تحدث بأمرها أحدا؟
- مطلقا.

فتفكرت مليا، ثم واصلت حديثها:

- أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة؟

-وهنا خفق قلبي بعنف-

- ثم ألا تدري عن أهلها شيئا؟ من أبوها؟
- لا أدري.
- ألم أقل لك إنك طفل! الزواج أخطر مما تظن. لعل وجهها أعجبك وهذا شيء لا وزن له، المهم أن تعلم أية فتاة هي وأي قوم أهلها وما مكانتها وما أخلاقهم، الشاب في الواقع يتزوج من أسرة لا من فرد. وينبغي أن يطمئن قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أما لأبنائه ومن يكونون أخوالا لهم.

وتولاني الارتباك، وأحسست بحنق لأول مرة، فقلت بيقين:

- أسرتها كريمة، لا يداخلني في هذا شك.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلا:

- إني واثق.

فبدا في وجهها الاستياء، وقالت:

- مدرسة! إن بنات الأسر الطيبة لا يشتغلن مدرسات، والمدرسة إما أن تكون عادة دميمة أو مستهترة مسترجلة!

فوخزني ألم في صميم الفؤاد، وهتفت بحدة:

- يا لها من آراء فاسدة! أنت لا تدرين شيئا عن الدنيا التي نعيش فيها! لقد تغير كل شيء، ولا شك أنها فتاة كاملة ومن أسرة عالية.

وغلبها الانفعال على هدوئها المصطنع، فقالت بنرفزة:

- لا داعي لإهانتي من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئا، وما قصدي إلا إرشادك لما فيه خيرك.

اشتد بي الحنق، ولو أنني استسلمت له لتفوهت بما أندم عليه، ولكنني ضبطت نفسي، وقلت برجاء:

- معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرجو أن تمسكي عن كلام يسوؤني.

فدارت انفعالها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

- إن ما يسوؤك يسوؤني وما يسعدك يسعدني، ونصيحتي إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها. وفقك الله لما فيه الخير والسعادة!

فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملؤه التودد:

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها.

فابتسمت قائلة:

- سيدعو لك قلبي آناء الليل وأطراف النهار.

وساد الصمت مليا حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطرا يلح عليها أن تفصح عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك، كأنك كنت ترصد موته على لهفة!

ولم أكد أصدق أذني، وبدا لي قولها نوعا من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعاودني الحنق والغيظ، وكدت أنفجر غاضبا، ولكنني استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على أية حال قبل مضي عام.

وانتهى الحديث عند ذاك، وشعرت بأني تخطيت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيدا، وقد كنت سعيدا بلا شك، ولكن شاب سعادتي إحساس بالقلق طالما عذبني في حياتي، إنه لا يفتأ يطاردني حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من مرة أجمع فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عضدي وينغص صفوي، بيد أن سعادتي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر".

(٢)

- "تجوز!
- أيوه يا نينا أنا نويت بجد.
- حقا بطلوا دا واسمعوا دا! كامل ابن امبارح كبر خلاص! صحيح يا كمولة هتتجوز؟
- أيوه.
- يبقى انا لازم بقى كبرت وشخت ورجلي بقت في القبر!
- ليه كدا يا نينا ليه!
- أنا فرحانة لك يا حبيبي فرحانة لك! و...عروستك حلوة؟
- أيوه، يا نينا.
- اسمها إيه؟
- ما اعرفش إسمها.
- يا حبيبي! هتتجوز واحدة ما تعرفش إسمها! بقولك لسه صغير مش مصدقني!
- أنا كبير وراجل! مش مهم اعرف إسمها، المهم انها بتحبني وانا بحبها.
- بتحبها؟

- أيوه، وقابلتها، وكلمتها، واتفقنا ع الجواز، وقالت لي أروح اكلم والدها.
- كل دا من ورايا!
- لما مليت إيدي جيت بستأذنك، أنا بحب دايما تكوني راضية عني.
- أنا دايما راضية عنك حتى لو جبت سكينة ودبحتني!
- نينا! نينا!
- فكرت... فكرت هتعمل إيه في الجواز؟
- أعمل إيه! هعمل اللي بيعملوه الناس!
- لما انت مش عارف بتكلم بنات الناس ليه! فكرت تحب وتقابل وتفاتح في الجواز ما فكرتش في المسؤولية! القرشين اللي سابهم لك جدك قربوا يخلصوا، وماهيتك لوحدها ما تفتحش بيت! والا يا ترى لما تجيب مراتك هتطردني! ما انت مضطر يا كامل مضطر يا حبيبي، الجواز تكاليفه كتير! عامل حسابك على الدبل، الشبكة، المهر؟ عامل حسابك على الفرح وتكاليفه؟ والا فاكر ان الجواز لعبة!
- أنا فكرت اروح لابويا.
- أبوك! أبوك اللي رماك وانت صغير هيسأل فيك وانت كبير! دا ما يعرفش حاجة في الدنيا إلا القزازة والكاس! اعقل، يا حبيبي! اسمع كلامي! أجل الجواز لحد أبوك ما يموت وتورث فيه!
- ما اقدرش اجل الجواز، ما اقدرش!
- قد كدا بتحبها!
- أول مرة في حياتي قلبي يتفتح لواحدة.
- دا بيتهيأ لك، البنات كتير!
- ما انتش فاهمة، ما انتش فاهمة!
- طب فهمني!
- ما اقدرش ما اقدرش"!

المقطع الأدبي عربي بليغ، امتزج فيه الحوار ووصف المقام، حتى كان لكل منهما نصفُ كَلِمِه تقريبا. والمقطع السينمائي مصري عامي خال من وصف المقام خالص للحوار.

ثم المقطع الأدبي ذو الثلاث والعشرين والمئتين والألف الكلمةِ (١٢٢٣)، خمسة أضعاف المقطع السينمائي ذي الإحدى والستين والمئتي الكلمةِ (٢٦١)!

لقد تخففت سينمائية المقطع من نصفه الذي كان مصروفا إلى وصف المقام، ثم أوغلت في ذلك حتى أتت على ثلثي الحوار الخالص نفسه تقريبا، الذي كان في المقطع الأدبي إحدى وخمسين وستمئة كلمة (٦٥١)، فصار في المقطع السينمائي إحدى وستين ومئتين (٢٦١)، مثلما أتت مشاهدة الفيلم في ساعتين وعشر دقائق، على ثلثي قراءة الكتاب في ست ساعات تقريبا!

الْخِطَابُ النَّقْدِيُّ فِي عُمَانَ: وَاقِعُهُ وَمَنَاهِجُهُ

على ظهر غلاف كتابه اختار الكاتب الدكتور سالم بن سعيد العريمي، أن يطبع من مقدمته قوله: "تعد المواكبة النقدية لكل عمل إبداعي مكثف في بلد معين أمرا طبيعيا ومشروعا أيضا؛ وذلك لأجل الوصول إلى عناصر التشكيل الإبداعي في جانبيه الموضوعي والفني، ولاستجلاء جوانب الجمال الكامنة في النصوص الشعرية. ويأتي هذا الكتاب للتعرف على الواقع النقدي في عمان، وآلياته المختلفة، وبرامجه المتعددة، ومدى مواكبتها للنص الشعري العماني رصدا وتحليلا ونقدا، فضلا عن رصد المناهج والاتجاهات النقدية المختلفة التي درست الشعر لعماني، وقدرتها على الكشف عن الملامح الأساسية للنص الشعري، ومدى ملاءمة هذه المناهج للنص الشعري وتحليله".

وقد اجتهد الكاتب في تتبع ما ظهر بنصف القرن الميلادي الأخير من أعمال اشتغلت بنقد الشعر العماني، مقالات كانت أو كتبا أو محاضرات، وعلمية كانت أو تعليمية أو تثقيفية- ثم استوعب ذلك كله بأكثر من خمسين مبحثا في تسعة فصول من بابين:

- الباب الأول: واقع الخطاب النقدي في عمان
  - الفصل الأول: البدايات النقدية ونقد الاختيارات
  - الفصل الثاني: النقد الأكاديمي
    - القسم الأول: النقد والكتب النقدية عن الشعر العماني
    - القسم الثاني: الدراسات الأكاديمية
  - الفصل الثالث: الفعاليات الثقافية والمؤتمرات والندوات النقدية
  - الفصل الرابع: النقد الصحفي
- الباب الثاني: التطبيق المنهجي وآلياته النقدية
  - الفصل الأول: المنهج التاريخي
  - الفصل الثاني: المنهج الموضوعاتي
  - الفصل الثالث: المنهج الأسلوبي
  - الفصل الرابع: المنهج البنيوي
  - الفصل الخامس: التناص

وقد وجدته من أحرص العمانيين على نقد الشعر العماني إذا كان أصيلا، ومن أزهدهم فيه إذا كان زائفا، لا يدخر في التتبع شيئا من وسعه، ولا يتحرج في التقدير من صغير ولا كبير، ثم هو طالب علم، لا يترك المسألة النقدية حتى يفهمها هو أولا قبل أن يعرضها؛ فإذا ما عرضها وقف القارئ عليها من أطرافها دون إفراط ولا تفريط، ولا إغماض ولا إدهاش؛ فضرب بكتابه هذا مثل النقد الحقيقي، مثلما يضرب بعزوفه عن الأضواء واكتفائه بإدارة مكتبة صور الأهلية، مثل الناقد النافع.

"سَرْنَمَاتٌ"، أَرْبَعُونَ حَقًّا سُمِّيَتْ أَبَاطِيلَ

قيل وأنا صَبيٌّ أُنْصِتُ: إن المخَدَّر يبوح بما ينبغي ألا يبوح به؛ فلما احتاج الطبيب إلى تَخْدِيري فَزِعْتُ إلى أمي خوفًا على أسراري، فما زالت تَعُدُّها عَلَيَّ؛ فكيف بالمُسَرْنَمِ!

زعم وليد النبهاني في حاشية اسم كتابه ذي الأربعين سرنمة (أُقْصُوصَةً)، عن "معجم الفلسفة" متصرفا- أن السرنمة "رد فعل عصابي يغادر فيه النائم سريره وينهمك في مظهر من مظاهر النشاط يعتقد أنه يهدف إلى إشباع رغبة أو تفريج توتر"! وما هي فيما بدا لي غير كلمة منحوتة من الفعلَين ["سَارَ، يَسِيرُ، سِرْ"، و"نَامَ، يَنَامُ، نَمْ"]؛ فإنَّ قائم العُصَاب إذا قامَ هَتَفَ بالنائم أَنْ: سِرْ، فيسيرُ، حتى إذا ظَنَّ أنه يَقْظَانُ هَتَفَ به أَنْ: نَمْ، فينامُ، وهكذا دواليك، حتى يَذِلَّ المَهْتوفُ به!

وإذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، فإذا كان أفق بوح المهتوف به أَرْحَبَ من أن يَحُدَّه حَدٌّ، فيَا ما أَحْوَجَ عبارته إلى أن تضيق! ولكن دعوى القصة بسطر واحد التي ادعاها وليد النبهاني، كدعوى القصيدة ببيت واحد؛ ينبغي ألا يُعَدَّ من القَصَص السطرُ الواحد، كما ينبغي ألا يُعَدَّ من القصائد البيتُ الواحد؛ كيف يستطيع هذا البيت الشعري: "لِأَنَّنِي أَمْشِي أَدْرَكَنِي نَعْشِي"، أن يُمَغْنِطَ إحساس المستمع فيتبعه إلى حيث يذهب! أم كيف يستطيع هذا السطر النثري: "للجدران آذان، وللجارة لسان. أين سيخفي الأعمى عورته؟"، أن يُحِيطَ المتلقي بدائرة حكائية كاملة تمنع مخالب الواقع من أن تصل إليه! ولكنها الكتابة الجديدة التي يسابق فيها الكتّابُ الشعراءَ إلى الأماسيّ، بنصوص قصيرة الأطوال مثيرة الأفكار حيوية الأساليب فَعَّالة التِّقَانات.

وينبغي أن نعترف لوليد النبهاني، بخصب الينبوع الذي يستقي منه أفكار نصوصه؛ فهي كثيرة مختلفة، لا يكاد يجف ما يستمده من تأمل أحوال الإنسان والحيوان، حتى يسترفد أحوال النبات والجماد -مثل نصوص "هكذا فكر بالون"، و"فلج"، و"مزمار داود"- فيَسْبُرُ منها ما لا يلقي له أحد بالا، وكأنما ينكشف عنه حجابها، فيسمع لسان حالها! ولا تشغله الجغرافيا إلا مثلما يشغله التاريخ، فيربط أحداثه المتنافرة بعضها ببعض ربطا فنيا لا يخلو من سخرية -مثل نص "تملُّك"- فإنه إن لم يفعل أَكْمَدَ نَفْسَه، ولم تَتَغَيَّرِ الأحداث- حتى إذا خشي تكرار الأفكار سَطَا على الحِكَمِ المطمئنة قديمة وحديثة -مثل نصي "الغنيمة"، و"بديهة"- فبعثها من مرقدها، في صُوَرٍ إيحائية ساحرة. ولا بد لمن يقرأ قوله في نص "بديهة":

"الذبابة تطير منذ مدة والضفدع ذو اللسان الطويل لا يستطيع أن يلتقطها طائرة بسبب بطء بديهته ستسقط الذبابة في الأرض كي يلتقطها الضفدع وستزحف بديهته ببطء إلى أن يحدث ذلك"، من أن يستحضر في وقت واحد معًا قولَ الغابرين: ["إِنَّ الرَّأْيَ إِذَا أَقْبَلَ عَرَفَهُ الْعَالِمُ، وَإِذَا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ"= "شَرُّ الرَّأْيِ الدَّبَرِيُّ"]، وقول الحاضرين: "يفهمها وهي طايرة"! ويغالب السِّينيمائيِّين على انتباه المتلقين، بنصوص تتخذ من الأفلام السينيمائية أَنْفُسِها مادَّتَها، فتُفَكِّكها وتُحَلِّلها وتُرَكِّبها بهواها على رؤاها، فتنتصب مرة أخرى فوق الأفلام كلها، بقامات أرفع من قاماتها وسَطَوات أَوْقَعَ من سَطَواتها.

وفي هذه الكتابة الجديدة تجتمع الأضداد:

١ التحدي الفني الذي جمع في بناء النص بين عمل الكاتب من داخله وعمل القارئ من خارجه في وقت واحد معا -مثل نص "حمال الأرز والراوي ذو الضمير الغائب"- وقد نشأ هذا الأسلوب طريئا بريئا، ثم طغى به وليد النبهاني على النَّصِّ. ومن التحدي الفني أسلوب العنونة الذي تردد بين إشراك العنوان في النص حتى يُمْكِنُ عَدُّه فقرة من فقره -مثل نص "هكذا فكر بالون"- فلولا العنوان لاستغلق فهم النص، وبين موازاة النص بالعنوان حتى يُمْكِنُ تَرجيحُه عليه -مثل نص "قارئ السماء عراف المطر"- فقد امتطى العنوان الصورة اللطيفة إلى شبه الحكمة المَثَلِيَّة الآسرة، فأما متن النص نفسه فلم يتجاوز محاولة اصطناع المُلْحة! وربما كان الإلغازُ من هذا التحدي الفني -مثل نص "سفرجلة"- ولا سيما أن نصوصه مغرية غير مستغلقة، من شاء استمتع بتحريرها وتوجيهها، غير مبال بما يمكن أن يقصده بها صاحبها.

٢ النقد الأدبي الذي يقضي بين القَداميِّين والحَداثيِّين -مثل نصوص "في البدء الآن"، و"الخصيان"، و"فتنة الناقد"، و"غبار"- ويوحي بأن "الآن" كان ينبغي أن يكون "في البدء" -وإن مَلَّ الحَداثيُّ أحيانا، فتَمَنَّى القَدامِيَّةَ، وطَفِقَ يَتَقَلَّبُ على نَارَيْهِما!- ويدل على افتتان الناقد بنقده وإنكاره لغيره -إذ يتلجلج في أحوال الآراء بين التوفيق والإخفاق، ولكنه لا يرى غير نفسه في عين نفسه- وعلى أن الكاتب الكبير هو نفسه كاتم أنفاس الكاتب الصغير، وإن ادعى غير ذلك!

لقد ضَفَرَ وليد النبهاني في ضَفيرة سَرْنَمَاتِه، خُصْلَتَيْنِ مِنْ عَمَلَيِ الفنان الكاتب (التحدي الفني) والعالم الناقد (النقد الأدبي) جميعا معا، ثم ألجم بضفيرتها خصومه، حين سبق إلى الحديث عنهم إسكاتا لهم، بمثل قوله في "فتنة الناقد": "كان خطأ مقصودا بعناية حين استبدل بمبخرته وتعاويذه كتبا ينقدها وبالرغم من عدم أهمية ذلك فإنه لا بد من ذكر السبب الذي جعل المشعوذ يرتكب هذا الخطأ حتى لا يقال بأنني أخفي الحقائق دائما فقد سمع الناقد الأدبي حين كان مشعوذا أن الكتاب لا يؤمنون بما يفعله المشعوذون لكنهم يستطيعون أن يؤمنوا بما يقوله النقاد أما الخطأ الأكبر في نظر الناقد فهو أنني أخبرتكم بهذه الحقيقة في قصة قصيرة للغاية مع أنه كان من الأفضل لي أن أكون مشعوذا حتى تصدقوا ما أقوله لكم بعناية أكبر"!

وليس لقارئ أن يلومه على ما فعل، ما دام قد أقامه في حال مُرَكَّبَةٍ لم يَكُنْ لِيَقُومَ فيها- ولا أن يشتغل بنقده الأدبي عن تحديه الفني؛ فإنه إذا قال له: أنا أرى، قال له: وأنا لا أرى!

ولكنه يستطيع أن يُعَلِّقَ على "سرنماته" ما يأتي:

١ في الاستفتاح بنص ألف ليلة وليلة مَنْعُ قراءة القصة من ذوي قارعة الطريق والنساء والجواري والعبيد والسفهاء، وقَصْرُها على الأمراء والملوك والمفسرين وغيرهم؛ وهل "غيرهم" هذه إلا ذوو قارعة الطريق والنساء والجواري والعبيد والسفهاء!

٢ على رغم أن المزمار هو وحده أعلق الآلات الموسيقية بالعازف، لم يستطع العازف أن يحميه -نص "مزمار داود"- فقد ذهب يستميل الملك، فاستماله الملك!

٣ فُصِلَ بين الفكرة والعبارة، وكأنما تَخْطُرُ الأولى فجأة، ثم تُجَهَّزُ لها الثانية، كما يولد الولد ثم يُجَهَّزُ له ثوبه -نص "فكرة"- وهذا قياس مع الفارق؛ فإن الفكرة والعبارة كالروح والجسم، لا كالجسم والثوب!

٤ لا بأس بالرمز إلى تَدْجين الشعب بالحياة الرخية، وأنه لم يلبث أن شمل قادة الإصلاح أنفسهم -نص "كيف استراح الديك من صياحه"- ولكن الطريف أن الدجاجة التي تبيض ذهبا نفسها، لا تبيض حتى يخالطها الديك، فأما المدجنون بالذهب فلا يعبؤون لشيء!

٥ شيء خفي من تحري التحدي، في "فرقعة" رمضان عظام رقبته ومئذنة المسجد أمامه قد تهدمت -نص "المؤذن"- وقد كانت رقبته عند الناس كالمئذنة، فمئذنته باقية، ومئذنتهم بائدة!

٦ لا بأس بالرمز إلى أن من ظلم الصهيونية الباغية، أن تمنع الحقيقة عن شعب الكيان الإسرائيلي، خوفا على ما يفتضح له من أكاذيبها -نص "جدار عازل"- ولا بالرمز كذلك إلى أن للحقيقة وسائلها التي تُحيِّرُ عند ظهورها توقعات الظالم الباغي!

٧ استعمال "في" بدل "إلى" -نص "بروس واين كما ينبغي"- استعمال موفق، يوحي بأنها لم تغادر أماكنها أصلا.

٨ "هناك من قال حين مات" -نص "الأعمال التي لا تكتمل"- أجزل من "حين مات هناك من قال"، و"بالرغم من كذا كذا" -نص "فتنة الناقد"- أجزل من "بالرغم من كذا فإنه كذا"، و"في حجم هذه القصة وبراعتها" -نص "ذكرى بعيدة ذكرى قريبة"- أجزل من "في حجم وبراعة هذه القصة"، و"رأس الرجل ولحيته" - نص " تقاطع خطوط"- أجزل من "رأس ولحية الرجل"؛ فلا خير في الفَصْل بين المتَّصِلات!

٩ عبارة "كانت تلك التجربة غامضة أو غير موجودة" -نص "ذكرى بعيدة ذكرى قريبة"- مثل عبارة "كانت غير كائنة"، وهو من السخرية بمكان!

١٠ في عبارة "قيد الأرض" -نص "قيد بن آدم الأرضي"- مناصاة عبارة "قيد الأوابد" من أولها، وعبارة "ملح الأرض" من آخرها- وما أحكمها مُناصاةً مُؤْسِيَةَ!

١١ استعمال "صدفة" بدل "فرصة" -نص "ألف موعد وصدفة"- استعمال موفق بدلالته على الرضا بالعجز، فضلا عن توفيق استعمال "في" بدل "على"، بدلالته على اللصوق بالمكان!

١٢ أهو تقاطع -نص "تقاطع خطوط"- أم تقابل!

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

السورة المنزلة العالية، و"سورة الشعراء" كذلك إحدى سور القرآن الكريم كتاب الإسلام العربي المبين. أتحدث إلى كل مشغول بالشعر في كلمتي هذه، عن أركان سورة الشعراء الأربعة:

- إيمان الشعراء،
- إصلاح الشعراء،
- إخلاص الشعراء،
- إنصاف الشعراء.

و"المشغول بالشعر" أحب ما أنادي به طالب الشعر، وطالب الشعر عندي هو الشاعر، كما طالب النقد هو الناقد، ولن يزال المرءُ شاعرًا ما طلبَ الشعر، كما لن يزال المرءُ ناقدًا ما طلب النقد!

أنظر في نداء المشغول بالشعر، إلى مجال الأشغال اليدوية الذي جُلنا فيه جميعا صغارا، موحيا بكونه منسوجا من الشِّعر، قد اختلط بلحمه ودمه!

- مقام الشعر

تَعَالَ إِلَيْنَا وَحِيدًا وَدَعْ تَحْتَ رِجْلِكَ نَفْسَكْ
عَلَى دَرَجَاتِ التَّخَلِّي تُحَلِّي بِمَا شِئْتَ كَأْسَكْ
وَتَبْنِي بِنَا مَا تَشَاءُ وَتَبْعَثُ بِالْيَوْمِ أَمْسَكْ

المقام مكان، والمقام مكانة، و"المكان إذا لم يؤنث لا يعول عليه"! ربما ظَننتَ أن تأنيث المكان في عبارة ابن عربي هذه هو أن تُلينّه للتمكن وتُذلله للتوطن، على أسلوب العرب فيما يؤنثون مما يعالجون، حتى إذا ما اطلعت على أن تأنيث المكان في العبارة هو أن يصير للكائن مكانةً، أفسحت له كما أفسح لك، فتداخلتما، وتمكن كلٌّ من صاحبه!

ربما ظَننتَ أن الزمان زمان الرواية، ينبغي لك أن تفر إليها من الشعر، حتى إذا ما اطلعتَ على أن القارئ إذا قرأ الرواية فإنما يبحث فيها عن الشعر، فتلبَّثتَ في مقام الشعر مليًّا، وظهر فيه إيمانك، وبه إصلاحك، وله إخلاصك، ومنه إنصافك- لان لك لينَ الحبيب لحبيبه -و"إذا عزّ أخوك فهنْ"!- وائتلفتما ائتلافَ الخليلين يقول كلٌّ منهما للآخر: يا أنا!

- إيمان الشعراء

لم يكن أبو تمام -٢٣١=٨٤٥- ليقول في الشعر:

"ولكنه صَوبُ العقول إذا انجلَت سحائبُ منه أُعقبَت بسحائبِ"،

لولا أن الشعر عنده هو لسان إيمان الشاعر، وكل إناء بما فيه ينضح! وإنما ترجحُ كلمةُ الإيمان هنا غيرَها، من حيث ينبغي أن يترسخ في رُوعِ الشاعر رأيُه في نفسه وفي الناس وفي الكون، بتحصيل علم الوجود الذي تتجلى به جهاتُ حركةِ الثلاثة الثلاثُ (جهةُ مِن أي المبدأ، وجهةُ الباء أي المسير، وجهةُ إِلى أي الغاية)، ولا يتركَ نفسه للآراء العارضة التي لا يقر له معها قرار.

ربما ظننتَ أن تحصيل ذلك من شأن العلماء المشتغلين وحدهم بالاكتشاف والوصف والتفسير والتوقع والتحكم -ومنهم الفلاسفة- ولو اطلعتَ على توفيق الشعراء، من ذلك إلى ما لم يُوفق إليه العلماءُ أنفسُهم لأَكذبتَ ظنَّك، ولأضفتَ إلى سبيل تحصيل الحقيقة التي يعرفونها، سبيلا أخرى يعرفها الشعراءُ وحدهم، منهَجُها التذوق الذي يُوفق به كلُّ من وُهب موهبتَهم الاستشعارية.

يسعى الشعراء سعي السالكين قبلهم -مهما كانت أزمنتهم وأمكنتهم- ويصحبون غيرهم، ويتأملون أنفسهم ومن حولهم وما حولهم، ويستنبطون كنه المبدأ والمسير والغاية، ويتلَّؤون بما استنبطوا؛ فلا يفيض إلا به شعرُهم، لا، ولا يمتاح إلا منه، ولا يدور إلا عليه، عفوا لا قصدا، وقصدا لا عفوا، حتى إنهم ليُنسبون إلى إيمانهم، مهما هفَت منهم هفواتُهم، ومهما اشتطَّت بهم شهواتُهم!

- إصلاح الشعراء

الإصلاح مضاف هنا إلى فاعله لا مفعوله!

ربما اعترضتَ بضرورة تحصيل الصلاح قبل محاولة الإصلاح، احتجاجا بمثل قول أبي العتاهية:

"لَنْ تُصلِحَ النَّاسَ وَأَنْتَ فَاسِدُ هَيهَاتَ مَا أَبْعَدَ مَا تُكَابِدُ"!

وعلى رغم أن الصلاح يكاد لا يظهر إلا بالإصلاح، تتكفل بالصلاح في أثناء الإصلاح المكابدةُ التي ذكرها أبو العتاهية، على هَدي جواب السؤال الثقافي المشهور "أيجوز أن يُصلِح قبل أن يَصلح؟"، بأنه يَصلح بالإصلاح، وهو معنى المشاركة الذي في المكابدة.

إن للشعر على الشاعر أن يُنير به النَّاسَ بصيرةً ويقوّمهم مسلكًا فيزيدهم إنسانيةً - مهما تعاكست عليه الأحوال حُبا أو بُغضا ورِضًا أو سَخَطًا!- وهذا سحر بيانه المعروف؛ إذ لا يخلو من المقادح مع المادح شيءٌ، على ألا يَصدر الشاعرُ في مدحه إذا مدح وقدحه إذا قدح، إلا عن إرادة الإصلاح.

ومن ذكر إيمان الشعراء ذكر زهرةَ النار الناشبةَ في أرواعهم، وما عبيرها الفواح إلا الإصلاحُ، الذي ينتشر منها حتى يملأ المكان من حولها، فمن دخله عندئذ تملّأَت به أقطارُ نفسه -وإن لم يطلبه- فازدهر وازدان أو ازدجر واستقام!

- إخلاص الشعراء

يرتع الشاعر كل مرتع، من نفسه وممن حوله وما حوله؛ فلا يربأ بنفسه عن شيء، ولا يربأ بنفسه عنه شيءٌ، حتى إنه ليتعرض أحيانا لتهمة التكسب (الانتفاع المادي)، ويوشك أن يُنفى بها من مجتمع الشعراء، لولا نباهة بعض من وقف من نقاده على أنه إنما يمدح من يحب أن يكونه ويهجو من يكره أن يكونه ويذكر أو يتذاكر وينسى أو يتناسى؛ وهذا أبو تمام -٢٣١=٨٤٥- يقول:

"ولولا خلالٌ سنَّها الشعرُ ما دَرى بُناة العُلا مِن أين تُؤتى المكارمُ"!

إن إخلاصك الشيءَ هو أن تُخْليه مما ليس منه، وإن إخلاص الشعراء الشعرَ هو أن يُخلوه مما ليس شعرا. ومهما افترقنا في تعريف الشعر اجتمعنا على أنه كلام فني! ولن يكون الشعر فنا حتى يَختصَّ من التفكير والتعبير بما ليس لغيره من أنواع الكلام، ولن يكون كلاما حتى يَعمّه من التفكير والتعبير ما يَعمُّ غيره من أنواع الكلام؛ ومن ثم ينبغي أن تختلط في الشعر أخلاطُ التفكير والتعبير الخاصة بأخلاط التفكير والتعبير العامة!

وإنما حَطَّ مِن بعض الشعراء أنهم اقتصروا في شعرهم على الأخلاط العامة - فجعلوه كلاما فقط- أو على الأخلاط الخاصة؛ فجعلوه فنا فقط. ولم يخل شاعر، لا كبير ولا صغير، منذ هلهَلَ الشعر العربي عديٌّ، من أن يهفو هذه الهفوة، حتى إن بعضهم ليخفيها من ديوانه! وإنما يمتاز كبار الشعراء من صغارهم، بغلبة هفوات هؤلاء ونَدرة هفوات أولئك!

- إنصاف الشعراء

الإنصاف مضاف هنا أيضا إلى فاعله لا مفعوله، والمنصف هو من يعطي من الحق كما يأخذ، فالحق عنده أبدًا نصفان: أحدهما له، والآخر لغيره، ومن أخذهما كليهما أو أعطاهما، لم يُنصف!

وفي مقام الشعر يذكر الشاعر نفسه والناس والكون من حوله، ولا يخلو ذكرُ أحد هؤلاء الثلاثة من منازعة:

إن في الكون ما يأنس إليه وما يستوحش منه، فإذا ذكره كان كما قال البردوني-١٤٢٠=١٩٩٩-:

"بلادانِ داخله هذه جنينٌ وهذي عجوزٌ طريحةْ"،

يحب الحديثة، ويكره القديمة، ولكنه يَحرسهما جميعا!

ثم إن في الناس من يأنس إليه كذلك ومن يستوحش منه، فإذا ذكرهم كان كما قال المتنبي-٣٥٤=٩٦٥-:

"وربما أُشهِد الطعامَ معي من لا يُساوي الخبزَ الذي أكلهْ"،

يحب الشجاع، ويكره الجبان، ولكنه يُطعمهما جميعا!

ثَمَّتَ إن في نفسه ما يأنس إليه كذلك وما يستوحش منه، فإذا ذكرها كان كما قلتُ:

أقسِّم جِسمي لي نصيبٌ وللبلوى نصيبٌ على ألّا نَصير إلى الشكوى،

يحب السلامة، ويكره البلاء، ولكنه يقَبلهما جميعا!

- منتهى السورة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

"والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"،

صدق الله العظيم!

سِياسَةُ الِاخْتِيَارِ بَيْنَ الْحِزْبِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ

[١]

أريد بالحزبية الانتماء إلى حزب سياسي معين يسعى إلى العُمْران (إصلاح كل فساد وحماية كل صلاح، من خلال التمكن من مواقع المسؤولية عن ذلك). وأريد بالوطنية الانتماء إلى مشترك عُمْراني تتوزع ملامحه على الأحزاب السياسية كلها.

ولا يخفى انطباع العمل السياسي الحزبي بطبيعتي التعصب والإقصاء: تعصب أهل كل حزب لأنفسهم على غيرهم؛ فليس كمثلهم عند أنفسهم أحد من سائر الأحزاب، لا يقينا ولا إخلاصا ولا إتقانا ولا ثباتا ولا رضا- وإقصاء أهل كل حزب لغيرهم عن أنفسهم؛ فلا سبيل عند أنفسهم لأحد من سائر الأحزاب إلى مشاركتهم، لا في التفكير ولا في التعبير ولا في الهدم ولا في البناء!

وكذلك لا يخفى خلو العمل السياسي الوطني من طبيعتي التعصب والإقصاء المتأصلتين في العمل السياسي الحزبي، ولكن ينبغي ألا يخفى انطباعه بطبيعتي التهاون والتجاهل: تهاون الواحد من الوطنيين بحقيقة مقدار الحدث الداهم؛ فليس أهنأ للبال ولا أروح للقلب من بقاء الحال على ما هي عليه- وتجاهل الواحد من الوطنيين لما يخص غيره؛ فليس أقوى من دواعي الأثرة (الأنانية)، ولا أضعف من دواعي الإيثار.

[٢]

ما أشبه السياسي الحزبي المخلص بالفَنَّان القلق المُبدِع! وما أشبه السياسي الوطني المخلص بالعالِم المطمئن المُتبحِّر!

إن الفنان يرى في فنه الفنون كلها، ويستغني به عن الفنون كلها. وكذلك السياسي الحزبي يرى في حزبه الأحزاب كلها، ويستغني به عن الأحزاب كلها. وكلما اشتدت رؤية كل منهما واستغناؤه واستوليا على تفكيره وتعبيره- أسرع بالفن والحزب تطورُهما، وازدان بهما دون غيرهما رُقِيُّهما.

وإن العالم مسؤول عن خصائص الأسلوب في كل فن، غير مُعْفًى باستيعاب أحدها عن استيعاب غيره؛ فإنه يُعَلِّم كلَّ مُتعلِّم ما يناسبه منها، ولا يعتذر عنه بالجهل. وكذلك السياسي الوطني مسؤول عن ملامح العمران في كل حزب، غير مُعْفًى بتطبيق ما

في أحدها عن تطبيق ما في غيره، فإنه يصطنع لكل مشكلة علاجها، ولا ينصرف عنها بغيرها.

ولقد علمتنا الحياة ألا غنى بالعالم عن الفنان ولا بالفنان عن العالم، فينبغي أن نتعلم ألا غنى بالسياسي الوطني عن السياسي الحزبي ولا بالسياسي الحزبي عن السياسي الوطني؛ فكما يَرُودُ الفنان للعالم مَجاهل لم تخطر له ببال، يرود السياسي الحزبي للسياسي الوطني- وكما يُؤسِّسُ العالم للفنان معالم ما تَحَقَّقَ، يؤسس السياسي الوطني للسياسي الحزبي.

[٣]

اشتعلت بشأن الانتخابات الحربُ بين الحِزْبِيِّينَ على مرأى المجلس العسكري! طائفة تريد الانتخابات مطلقة وأن تتم في موعدها، وطائفة تريدها مقيدة وأن تؤجل إلى أجل غير مسمى، وتذبذب بين الطائفتين الوطنيون!

خرج الحزبيون جميعا على المجلس العسكري، وحددوا كبيره تحديدا، فتحداهم إلى الاستفتاء في أمره، ثم في أمر من سيتسلم منه السلطة، فظهر في جواب التحدي رأيان:

أولهما مُذاعٌ يَرى فيه مَنْ لا أُحَدِّده، أن يتسلم منه السلطة مجلس رئاسي يشارك فيه المترشحون للرئاسة كلهم جميعا. والثاني غير مُذاعٍ يَرى فيه أخي الفاضل المقدم مجدي صقر (ضابط سلاح المدفعية)، أن تُقَدَّم للمنتخبين ورقة زائدة تستفتيهم في أمر المجلسين العسكري المَنْكور والرئاسي المَذْكور.

والذي أراه أَلّا تَعَمُّدَ بذلك التحدي، أو أَلّا حِكْمَة في حَمْله على التَّعَمُّد، بل على أنه جواب عارض للتشنيع عليه بـ"ارحل"، والعارض لا يُعْتَدُّ به. أما مجلس المترشحين الرئاسي ففكرة سياسية وطنية حكيمة جدا، ولا سيما أن أولئك المترشحين مترشحون من قبل -فلا تَعَمُّدَ بهم- وأنهم أخبر بالسياسة -فلا مزايدة عليهم- وأنهم مختلفو المنطلقات والرؤى والاختيارات، فلا احتكار منهم!

ربما خطرت فكرة مجلس المترشحين الرئاسي لصاحبها، في جواب تحدي المجلس العسكري، فذهبت من وعي الناس عُروضًا بعُروض، ولا سيما أن يُنْتَظَر حدوث الانتخابات في وقتها. ولكنني أدعو إلى التمسك بها حتى تستقر الأوضاع تماما -فما زال بنا خوف شديد من عواقب الانتخابات- فإذا مُكِّنَ من المجلس الرئاسي هؤلاء المترشحون على اختلافهم فسيزداد تقدير التوفيق.

[٤ (معاهدة المنتخِبين)]

بكراهتك ما في الظلم من مرارة، وما في الخوف من قشعريرة، وما في العجز من ذلة، وما في اليأس من ظلام، وما في الارتياب من قلق، وما في الرياء من ضعف، وما في الإفساد من غدر، وما في الجمود من موات، وما في التقليد من كآبة -أسألك أن تُبكِّرَ إلى انتخاب من تؤمل فيه حلاوة العدل، وطمأنينة الأمن، وعزة القدرة، وضياء الطموح، وثبات اليقين، وقوة الإخلاص، ووفاء الإصلاح، وحياة التغيير، وبشاشة الإبداع!

[٥]

استقمت في الصف صامتا، فأبى من خلفي إلا أن يتكلموا فيمن يختارون ولا سيما أن مندوبي المرشحين سارحون بين الجماهير المحتشدة أحرارا بعُرْفٍ قانونيٍّ يلغي القانونَ غيرَ العُرْفِيّ!

- أنا حفيد فؤاد سراج الدين، ولا يمكنني ألّا أنتخب الوفد.
- أهلا بك! إن الوفد تاريخ مشرف وذكريات عطرة ومآثر كبيرة، ولقد أفضى إلى ما قدم، ولم نحضر اليوم لتَحْنِيط الحاضر!
- وخالي إسلاميّ نشيط.
- والخال والد!
- بل لي خال إسلاميّ نشيط آخر.
- اثنان على واحد!
- ولكنني مرشد سياحي، معطل عن العمل منذ أشهر، يمنعني من انتخاب الإسلاميّين ما سمعته عن قادتهم في خمر السياح.
- وماذا قالوا؟
- وعد بعضهم بمنعهم منها تماما، وتغاضى بعضهم مع منعهم منها في الداخل عن اصطحابهم لها من الخارج!
- "خمرتك في جيبك"! ما أشبه "التغاضي عن اصطحابهم لها من الخارج"، بالمُلَح (النكت)!
- أنت مدخن، وهم مدمنو خمر، وكلا التدخين والخمر حرام؛ فهل تستطيع أن تمتنع عن التدخين لتمنعهم عن الخمر وهي حياتهم؟

- مكروه لا حرام.
- بل أفتى نصر فريد واصل بحرمته صراحة، فتوى موثقة معلقة في المساجد.
- وإذا مُنِعْتُ من التدخين امتنعتُ، فلماذا لا يلتزمون عندنا بقوانيننا، مثلما نلتزم عندهم بقوانينهم؟
- طلب مني أحد السياح زجاجة خمر، فقلت له اطلبها من خدمة الفندق! فلما أصبح سألني عن ذلك، فقلت له: نحن المسلمين تَحْرُمُ علينا الخمر وأعمالها، ومنها حَمْلُها إلى شاربها.
- موقف مُشَرِّف، ولا يملك له إلا تقديرك.
- أتدري، ربما أَنتخِبُ الإسلاميِّين!

[٦ (وَثِيقَةُ زَوَاجٍ مِصْرِيَّةٌ)]

هَيَّا يَا مَيْدَانَ التَّحْرِيرْ
هَيَّا يَا ذِكْرَى الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينْ
قُولَا وَلْيَشْهَدْ كُلُّ الْمِصْرِيِّينْ
زَوِّجْنِي نَفْسَكَ يَا مَيْدَانْ
أَقْبَلُ يَا ذِكْرَى
بُورِكَ فِي الذِّكْرَى لِلْمَيْدَانِ
وَلِلذِّكْرَى فِي الْمَيْدَانْ
لِلشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ الْوَلْهَانْ

[٧]

لو كنتُ مجلس الشعب الثائر لاستصدرت قانونا يُعَطِّل كل ما يمكن تعطيله من المؤسسات الحكومية وشبه الحكومية (الجامعات، والأندية...)، مُدَّةً محددة بنتيجتها، ثم أطلقت رجالها ونساءها يسعون بين الناس بالتربية والتعليم، ثم لم أعط أيا من أولئك الرجال والنساء أجره، حتى يأتيني آخر كل شهر، بما رَبَّاه وعَلَّمه صلاحا وإصلاحا، وبمَنْ رَبَّاه وعَلَّمه صالحًا ومُصْلِحًا!

[٨]

تأخر عنا اليوم أخونا الفاضل كثيرا، ثم لما حضر اعتذر بانقطاع الطريق بمظاهرات طوائف الشعب المختلفة كلها جميعا معا، ثم نظر إليَّ قائلا:

- ولا يوم...

فأكملت له:

- ... من أيام مباركْ!

وضحكنا؛ إذ لا يخفى على أحدٍ ما يراد من تفسير مظاهر الفوضى العارمة، بإخفاق القائمين على المرحلة -ونحن منهم- إخفاقا مغلقا محكما، لا مخرج له ولا نجاة منه إلا التسليم به، والندم على ما أدى إليه، والعزم على أن نتهم أنفسنا دائما ولا نتهم من يخوننا ويخدعنا ويظلمنا حتى يمحونا من دنيا لا مكان لنا فيها!

[٩ (جيلنا أيها المضطرب)]

ينبغي أن يلفتنا اليأس عن إصلاح أنفسنا الذي حاولناه نَجِبْنا، إلى صلاح أبنائنا الذي نؤمله لتغيير ما بنا!

لقد تبين لي بما لا ريب فيه ألا سبيل الآن لمُعارِضٍ إلى مشاركة مُتَمَكِّن، مهما كان مجال المشاركة، ومهما كان انتماء المعارض والمتمكن!

ولا يُمَيِّزْ لي أحدٌ نصيره من خصيمه؛ فنحن كلنا أبناء تربية ثقافية فاسدة واحدة -وإن تعددت مظاهرها- ولن تُمَيِّزَ بيننا آثارُها.

فلينفرد مَنْ تَمَكَّنَ حتى يُزَحْزِحَه مُعارِضه بما يستحدثه من حِيَلٍ!

ولكن ينبغي أن نجتمع على غاية واحدة:

أن يحيا أبناؤنا الحياة الصالحة التي تمنيناها وعجزنا عنها!

وأول ما ينبغي أن نفعله في سبيل ذلك، هو أن نعترف لهم بفساد حياتنا!

فيا أبنائي، عذرا!

لقد عجزت عن مجاراتكم!

[١٠]

"ذهبت أشتري لنفسي ولابني شبشبين فسألني صاحب المحل:

- من سترشح للرئاسة؟

فقلت له:

- فكرت أن أرشح نفسي!
- فابتسم وألح، فقلت له:
- دعني ألبس هذه الشباشب، ثم أرى بعدئذ ما يكون!

فانفجر ضاحكا! ثم مضيت، فناداني:

- ألن تأخذ زوجين للنائب!

[١١ آباء المسجد (موقف رمزي)]

اشتغل الأب منذ قليل بصلاة سنة الظهر، فانسل منه صغيره إلى خارج المسجد، فصاح بالصغير أحد المشتغلين بالتسبيح:

- ارجع إلى داخل!
- لماذا؟
- هكذا!
- أريد أن أشاهد الناس.
- بل ادخل إلى أبيك!
- لماذا؟
- لكيلا يضربك الرجل!
- ماذا؟
- بالخارج رجل سيضربك إذا خرجت.

فتظاهر الصغير بطاعة الرجل المشتغل بالتسبيح، ولكنه تَسَحَّبَ إلى خارج، فإذا خلفه أحد المنصرفين بعقب الصلاة يصيح به:

- ارجع إلى أبيك!
- لماذا؟
- لكيلا ينزعج بالبحث عنك.

فتَلَبَّثَ الصغير قليلا، ولا سيما أن حجة الرجل المنصرف العلمية أوضح من حجة الرجل المسبح الفنية، ثم لم يلبث الصغير أن ضرب بالحجج كلها عرض الحائط!

[١٢]

لما ذكرتُ قرار وقف اتفاقية الغاز، فيما يحسب للقائمين على المرحلة، صخب عليَّ بعض تلامذتي بأنه يشعل فتيل الحرب! قلت:

- إنها أمنيتنا!
- وهل تؤهلنا للحرب حالنا!
- بل ستؤلف قلوبنا وتحكم قوتنا وتسدد مسيرتنا وتثبت أقدامنا!
- ولكننا سنتلقى الضربة الأولى!
- لنردها بأخرى خالصة مصممة!
- على هذا أربي ابني!

[١٣ (دَعَوات الشَّاهدِينَ للْغَائبين)]

إِذَا شئْتَ أَنْ تَدْعُو لِي اللّهَ فَابْتَدرْ إلَى خَمْسَة مَقْصُودَة بِالْمَرَاتِبِ
يَقِينٌ فَإِخْلَاصٌ فَإِتْقَانُ صَنْعَة ثَبَاتُ رِضًا أَكْمِلْ بهَا منْ مَنَاقِب
تَطِيرُ مَرَاسِيلُ النَّعِيمِ بِحَقِّهَا إِلَى حَيْثُ تَسْتَوْفِي كِرَامُ الْمَطَالِبِ

[١٤ (أقران إبليس)]

من ينكر أن مؤسسات مصر معرضة فيما يأتي للانقلاب رأسا لعقب غاية ومنهجا وأسلوبا وإدارة! أرى أنه لا أحد! إذا كان هذا هكذا أفتغيب عن عقلٍ كبير أو صغير، حاجةُ الإدارات القائمة إلى سرعة تحسين سياستها المؤسسية ومسلكها الإداري تمهيدا للاستيلاء على آثار الانقلاب القادم، ما دامت حريصة على البقاء! أرى أنه لا يغيب! إذا كان هذا هكذا ثم وجدنا بعض الإدارات حريصة على السياسات والمسالك القديمة القبيحة أفلا يكون هذا الإصرار من تصرفات اليائسين! أرى أنه يكون! ولا أزيدك بتصرفات اليائس علما: يهدم ما انبنى ويقطع ما اتصل ويفرق ما اجتمع، يُبادِرُ إبليس إلى الإفساد، غما وكمدا وحقدا!

[١٥ (مَدَدًا لِمُرْسِي)]

فِي الشِّينِ شَيْنٌ مِنْ مِدَادِ الظُّلْمِ يَحْجُبُ سِينَ مُرْسِي
يَقْسُو عَلَى الرَّأْيِ الرَّزِينِ وَلَا يَلِينُ لِقَلْبِ مُرْسِي
سَأَلُوكَ فَاسْتَمْهَلْتَهُمْ وَوَزَنْتَ عَسْكَرَهُمْ بِمُرْسِي

أَشْعَلْتَ شَمْسَ النَّهْضَةِ الْكُبْرَى لَهُمْ وَاخْتَرْتَ مُرْسِي
مَدَدًا لِمُرْسِي عَنْ رِضًا بِالنُّورِ يَا مَدَدًا لِمُرْسِي

الْقَصِيدَةُ الْعَمُودِيَّةُ الْإِحْيَائِيَّةُ الْجَدِيدَةُ: الْبِنْيَةُ وَرُؤْيَةُ الْعَالَمِ (شُعَرَاءُ مِصْرَ نُمُوذَجًا)

"عمَّقَت القصيدة العمودية الإحيائية الجديدة بغناها الفني والمعرفي، تجذُّرها التاريخي متصلا بحداثتها الخاصة الراسخة، مشتبكة بزمنها وبتاريخها، واقفة بوعي بموقعها، كاشفة عن وعي بالتحدي الذي يمثله الاستمرار في المستقبل، ويؤكد هذا الغنى جدارتها بهذه المكانة التي بدأت تحتلها مصريا وعربيا. وهذا ينبه بقوة إلى أهمية إنقاذ هذا الشعر من رهانات أيديولوجية مالية عولمية، تروج نمطا سطحيا من الأفكار الاستهلاكية، يطمس الاختلافات، وينمّط التطلعات، ويوجه الأحلام، ويجعل الإنسان العربي المسلم تابعا للأنساق الاستهلاكية العالمية وما يدعمها من أنماط رأسمالية تسعى إلى محو خصوصية وجوده لا إلى مجرد الهيمنة عليه، من خلال وكلاء محليين"!

إلى هذه الخلاصة انتهى الدكتور رضا العربي، من سفره الضخم -٥٧١ صفحة- "القصيدة العمودية الإحيائية الجديدة: البنية ورؤية العالم (شعراء مصر نموذجا)"، الذي شرفني بالتنويه بي فيمن يحملون راية هذه القصيدة. وتبنى فيه مفهوما "بنيويا تكوينيا"، يحتفي بدلالة النص الكلية في إطارها المرجعي الاجتماعي، ويتيح له أن يتدرج من تحليل "التفاعل النصي"، ثم "البنية الموسيقية"، ثمت "التصوير الفني"، إلى "رؤية العالم". لا أنكر أثر ما بيننا من محبة، ولكن ينبغي ألا أنكر كذلك، أنني ارتحت من هذا السفر الضخم، لناقد مخلص حريص واع بنّاء، فجلست إليه جلوس المطمئن إلى تحصيل المتعة والمنفعة، تحت راية الأصالة والنباهة.

نَافِذَتَانِ عَلَى الْبَحْرِ

اطلعت من قبل على اشتراك بعض الرجال والنساء في بعض الأعمال العلمية، وكان بعضهم أزواجا مترابطين، يتحد بين كل زوجين منهم مجال البحث -وربما زَوَّجَهُما اتحادُه من قبل واجتماعهما عليه- فيفكران معا، وينجزان معا، ويقبلان ويدبران معا، فيتكاملان.

أما أن يشترك بعض الرجال والنساء في بعض الأعمال الفنية المستعصية بفَرادَتِها الشديدة على الاشتراك، ولا سيما غير الأزواج منهم- فما ينبغي أن يكون، ولكنه لا يكاد يكون! وإنما كان في هذا الكتاب برأي من عرف كلا منهما وحده، فاستحسن أن يجمعهما عليه، فأحسن، وسبق إلى ما يحسب له!

"إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الْأَقْوَامِ (الرجال)" كما قال المثل الشعري العربي القديم، أي مُكَمِّلاتهم، ولو تيسر للشاعر أن يعكس كلمته، فيقول: "إِنَّ الرِّجَالَ شَقَائِقُ النِّسَوانِ (النساء)" مثلا، لأصاب آخِرًا مثلما أصاب أولا؛ فلا تقوم حياة ولا تستمر بأيٍّ من الذكور والإناث دون الآخر؛ ومن ثم يتطلع كل حكيم إلى معرفة رأي المرأة مثلما يتطلع إلى معرفة رأي الرجل.

وإن في هذا الكتاب لفرصة كبيرة لمن يريد من الحكماء أن يرى وَجْهَي الرأي، ويستوعب المشهد من نافذتيه المتقابلتين جميعا معا؛ فقد اجتمع الكاتبان (أسماء إبراهيم حميد الصياد، وحمادة عبد الإله حامد)، على تناول بعض الأحداث الواقعية، وطمحا في تناولها إلى بعض المعاني المثالية التي استبطناها من ورائها، رغبة في إصلاح الحياة النفسية والاجتماعية.

وفي أثناء تعلق الكاتبين بأسلوب السرد (القَصّ) كثيرا، تدفقت أفكارهما بأصواتها وكلماتها وتعبيراتها وجملها، قريبة سهلة، تمتاح من بحر الحياة النفسية والأسرية والمجتمعية والشعبية، من غير أن تخلو من ذلك الاستبطان الذي يَقِفُ كُلَّ بَحَّارٍ على عمق ذلك البحر وترامي أطرافه واضطراب أمواجه وبعد مداه؛ عسى أن يعد للإبحار عدته، فلا يندم بعد فوات الأوان.

ولقد ينبغي أن نحيي الكاتبين مرتين: مرة على اشتغالهما بهذا النمط من الكتابة في هذا الزمن المشغول بمشاغل أخرى، ومرة أخرى على إشراكهما لمعالم هذه المشاغل

الأخرى وأخبارها أنفسها في أصل ما يكتبان، تعبيرا عن أنهما كائنان طبيعيان كغيرهما، يعيشان في هذا العالم، ويجمعان بين مشاغلهما ومشاغله، من غير أن تجور إحداهما على الأخرى.

هَذَا الْكِتَابُ "فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرَى"

فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرَى نَسِيتُ مَكْرَ الْوَرَى

وَعِشْتُ مُسْتَنْفِرًا بِغَزْلِ مَا قَدْ فَرَى

فَلْتَطَّرِحْ جَانِبًا مَا قِيلَ حَتَّى تَرَى

ما الذي يجعل شابا (محمود رفعت)، من هذا القرن الهجري الخامس عشر الموافق القرن الميلادي الحادي والعشرين، يلتفت عن دواعي الحداثة التي تشغل أقرانه الآن بتِقانتها ورَفاهتها، إلى دواعي قدامة تجذبه ستة عشر قرنا بما يكاد لا يراه غيره، إلا أن يكون قد رُزق من الحكمة ما علَّقه بما قضى التاريخ بأنه زمان الطراءة والجراءة والشفوف والنفوذ والفصاحة والبلاغة، الذي لم يشغل العربيَّ فيه عن الإنصات إلى نفسه صخبٌ ولا كذبٌ!

لقد أحب صاحب هذا الكتاب الشنفرى على بعد الزمان والمكان، وخلطه بنفسه حتى نسي أنه محمود وأنه الشنفرى، وبدا له أنه إنما يراجع كلامًا قاله هو نفسُه قبل ستة عشر قرنا؛ فعنده من ثَمَّ خبرُه الذي لا يعرفه غيرُه على طول استتاره ولا يجوز منه الارتياب فيه، لأنه صدَق نفسه، والصدق منجاة!

اقرأ ما شئت من شروح شعر الشنفرى، ثم انسَهُ، واقرأ هذا الكتاب؛ فلسوف تجد صاحبه يجمع لك من معاني الشنفرى ومبانيه التي فرَّقها في شعره ما لم يجتمع قبله، مثلما يجمع مركبو أجزاء الصور المقطعة أجزاءها -فإذا هي صور أشخاص يعرفونهم أو يعرفون أشباههم- ولا يدعها حتى يعلق بها معانيه ومبانيه!

وَكِشْكٌ وَالشَّيْخُ وَالْجُونُ، ذِكْرَى قَدِيمَةٌ

جلسنا صباح أحد أيام رمضان ١٤١٩=١٢/١٩٩٨، في حجرة الدكتور أحمد كشك رئيس قسم اللغة العربية بآداب جامعة السلطان قابوس بمسقط عمان، فذكرت لأمرٍ ما رسائل محمود درويش وسميح القاسم، فصاح الدكتور خليل الشيخ -وهو فلسطيني أردني ذو علم ورأي- قائلا لي: أرأيت البيان العالي الذي فيها!

فنفيت أن يكون بها ما ذكر؛ فحملته على أن يشتد في حواري في هذا الشأن، فكان أن أدخلتهم ميدان بحثي هذا "الجزالة والركاكة: دراسة نحوية مقارنة"!

قال الدكتور خليل: إنما الجزالة عندهم في اللفظ لا الكلام.

فنفيت هذا.

وقال الدكتور محمد صالح الجون –وهو جزائري متخرج أول الستينيات في دار العلوم- بعد حين: الجزالة عندهم في اللفظ المفرد، وهذا فيه نظر؛ إذ يتعلق بالسياق الاجتماعي الذي يوضع فيه؛ فما يكون جزلا في حين يكون قبيحا في آخر. أما جزالة الكلام فنسأل أهي نتيجة جمع اللفظ الجزل إلى مثله؟

وقال الدكتور أحمد كشك: إن هناك علاقة مؤثرة في حكمك بالجزالة، تكون بين الألفاظ المقبولة في الموضع الجزل بعضها وبعض، ينبغي أن تراعيها.

فقلت بعد حين: هذا صحيح وصعب.

فقال: لا حيلة لك إلا اختيار مواضع للبحث. وقال: لا ريب في أن البحث في النظم.

فقلت: أجل.

فقال: إذن حكمك هنا ذوقي لا معياري، أي لن تحكم على فلان بالخطأ وفلان بالصواب.

قلت: أجل.

فقال: كل أولئك الكتاب مقبولون إذن، ولا شيء إلا أنك تفضل أحدهم دون الآخر، وربما عكست أنا ذلك!

فقلت: إن لم يكن تخطيء وتصويب فثَمَّ حُكمٌ على أسلوب بالقوة وعلى آخر بالضعف.

وكان الدكتور خليل سألني: ما الجزالة في لفظة واحدة؟

فقلت: الإحكام.

فقال: ألفاظ الجزالة والركاكة والقوة والضعف، عائمة غير علمية.

فقلت: نستطيع أن نضبطها.

فقال: لا نستطيع، نحن نريد شيئا يحسمه الحاسوب، على أنَّ لبعض النقاد طريقة ذوقية لا يضبطها الحاسوب.

فقلت: وهم يتعصبون لها ويدافعون عنها.

فقال: نعم، ولكن المناسب العلمي غيرها.

فقلت في خلال الحوار: أنا أقرأ الكلام العربي ليلا ونهارا، وقد حصلت لي به خبرة تمكنني من تمييز جزله من ركيكه.

فقال الدكتور خليل: ألا ترى هذا الذي ذكرت ذوقا لا علما؟

فقلت: لقد صنع أستاذنا وصديقنا الدكتور سعد مصلوح دراسة أثبت فيها بإحصاء الكمبيوتر أن أحكام الخبراء الذوقية صحيحة صحة نسبية أغلبية.

وكان الدكتور خليل قد أنكر عليّ أن أحصر اللغة فيما كان لها من ألفاظ هي التي وصفت بالجزالة، واحتج بأن ألفاظ الجاحظ الذي لم أنكر سموّ بيانه، في الحيوان غيرها في البيان، وأن أسلوب طه حسين الذي يتمدح به الأدباء مختلف جدا عن أسلوب الرافعي الذي حافظ على الطريقة القديمة، وكنت قد بينت أنني أبحث جزالة التركيب لا اللفظ، فأبين كيف يسبك الكلام مرتبطا متآخذا كما يقولون، يشد بعضه بعضا بحيث لا تستطيع أن تحذف منه شيئا أو تقدمه على شيء، لا كأسلوب درويش والقاسم في الرسائل، وكان قد أنكر أن أستطيع أن أمسك على درويش شيئا من ذلك، وتحداني.

ثم قلت لهم: لن أترك كلامي في الفراغ، بل أطبقه على نصين كبيرين أحدهما للعقاد والآخر لأنيس منصور.

فعجب الدكتور خليل من جمعي هذا المسكين بذاك الجبل؛ فبينت لهم كثيرا أن هناك جوامع بينهما على أية حال، ثم إن الضد لا يظهره ناصعا إلا الضد.

فقالوا: تدخل إلى البحث بحكمك إذن!

فقلت: ألا يجوز بل ينبغي للباحث أن يعتمد على خبرته ويُحكّمها في اختيار بحثه وميدانه؟

يَا لُغَتاهْ (ثَقَافَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ)!

أما "يَا لُغَتَاهْ" فاسم أحد كتبي الرقمية:

http://mogasaqr.com/.../%d9%8a%d8%a7-%d9%84%d8%ba%d8%aa.../

قد نظرت فيه إلى أمومة "يا" باب النداء (أنها أكثر أدوات النداء عملا ودلالة)، حتى لا يخلو نداء لغتي مع طلب إقبالها -ولو مجازا!- من التعجب والاستغاثة والندبة جميعا معا!

أنادي لغتي نداء من لا يأنس إلا بها، وأتعجب لها تعجب من يحبسه العجز عن شأوها، وأستغيث بها استغاثة من لا يفكر إلا بها، وأستغيث لها استغاثة من لا يرضى أن يذلها أحد بعد عزها، وأندبها ندبة من لا يفتأ يذكر مجدها ويخشى فقدها.

وأما ثقافة اللغة العربية فمجال واسع، أنبه منه على أربعة محاور فقط:

- تداخل الوجود العربي والتفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:
  - المولد، والمنشأ، والملهى، والمسعى، والمطمح...
- تداخل التدين بالإسلام والتفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:
  - الإسلام، والإيمان، والإحسان...
- تواصل الماضي والحاضر والمستقبل والمشرق والمغرب والشمال والجنوب، في التفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:
  - الاستماع، والتحدث، والقراءة، والكتابة...
- تكامل اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية، على رغم الاستقلال:
  - الخلود، والعموم، والفاعلية، والخصوصية...

وفيما يأتي أشير إلى طرف من أمر هذه المحاور الأربعة.

- تداخل الوجود العربي والتفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:
  - المولد، والمنشأ، والملهى، والمسعى، والمطمح...

قديما فَرَّ بعض آل البيت إلى بلاد العجم من بلاد العرب، وذابوا في الناس؛ فاستعجموا على رغم نسبهم العربي الشريف! أخبرني أخي الحبيب الدكتور تولوس مصطفى (رئيس اتحاد معلمي اللغة العربية بإندونيسيا)، أن إندونيسيا (بلده)، حلَّته طوائف أجنبية مختلفة، ولكن لم يَذُبْ منها في الإندونيسيين غيرُ العرب، وشهد على صدقه عندئذ عَفْواً،

شابٌّ كان معه، مصريٌّ فَذٌّ، متزوج من إندونيسية وله منها ولد، كتبتُ عنه فيما بعد مقالي "آية الله علي بن عبد المنعم":

http://mogasaqr.com/.../%d8%a2%d9%8a%d8%a9-%d8%a7%d9%84.../

فهؤلاء العرب الآن إندونيسيون، ولو كانوا من آل بيت النبي العربي أفصح العرب طُرًّا، الذي سَمَح له البيان الأبيّ، صلى الله عليه، وسلم!

نعم؛ فإن اللغة تستولي على صاحبها من قبل أن يولد، ثم تشب معه عن الطوق، لا تدعه لا في يقظته ولا في نومه، بل ربما انكشفت في هذا أوضح مما تنكشف في تلك؛ ولأمر ما يؤثر بعض الناس الانفراد بنومه!

ولقد درس عليَّ العربية من لا يتكلمها، ثم زارني في مكتبي، فدخل علينا عندئذ أحد إخوانه، وأقبل كلٌّ منهما على الآخر يكلمه بلغتهما؛ فغضبت أن انفردا عني معي بما يشبه الإسرار -وهو عندنا من سوء الأدب- فاعتذر إليَّ تلميذي بأنهما إنما فعلا ذلك عفوا، ولو لم يفعلا لخَشِيا على أُخُوَّتِهما!

وقد بلغ من وعي بعض تلامذتنا ما ينبغي أن تكون عليه منزلة اللغة من صاحبها، أن أطلق حَمْلَةً تثقيفية، تستبدل بالشتائم العجمية شتائم عربية فصحى؛ فلما علقت على عمله أنني أنزه العربية الفصحى عن ذلك، وأتركه للعامية، رَفْعًا وخَفْضًا- خالفني إلى موافقته من لم يخالفني قَطّ، تمكينا للعربية الفصحى من أحوال العربي المعاصر المستعجم؛ فذكَّرني قول أحد كبار الأطباء المصريين ساخطا على زملائه: أنا أمرض بالعربية فكيف أعالج بالإنجليزية!

ألا إن العربي إنما يحيا في لغته العربية، قبل أن ينطلق في الهواء على الأرض تحت السماء؛ فإذا استقامت لغته على العروبة استقامت حياته، وإذا اعوجت اعوجت! وهل العربي إلا كلمة! فهل تحيا هذه الكلمة إلا في تعبير، وهذا التعبير إلا في جملة، وهذه الجملة إلا في فقرة، وهذه الفقرة إلا في فصل، وهذا الفصل إلا في كتاب، وهذا الكتاب إلا في جَمْهرة!

- تداخل التدين بالإسلام والتفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:
    - الإسلام، والإيمان، والإحسان...

في معنى كراهة تسمية الشهور بغير العربية استطرد ابن تيمية (728= 1328) - رحمه الله، وطيب ثراه!- في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم"، إلى مكانة اللغة العربية من إسلام المسلم وإيمانه وإحسانه، وكأنما وجد منطلقا فانطلق، فكان مما قال -ويا ما أشبه حالَ المسلمين في زماننا بحالهم في زمانه!-: "إِنَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الْأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ- وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، يَكْرَهُونَ فِي الْأَدْعِيَةِ الَّتِي فِي الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، أَنْ يُدْعَى اللَّهُ أَوْ يُذْكَرَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ (...) كَرِهَ الشَّافِعِيُّ لِمَنْ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، أَنْ يُسَمِّيَ بِغَيْرِهَا وَأَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا خَالِطًا لَهَا بِالْعَجَمِيَّةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْأَئِمَّةُ مَأْثُورٌ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ (...) وَأَمَّا اعْتِيَادُ الْخِطَابِ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَلُغَةُ الْقُرْآنِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً لِلْمِصْرِ وَأَهْلِهِ أَوْ لِأَهْلِ الدَّارِ أَوْ لِلرَّجُلِ مَعَ صَاحِبِهِ أَوْ لِأَهْلِ السُّوقِ أَوْ لِلْأُمَرَاءِ أَوْ لِأَهْلِ الدِّيوَانِ أَوْ لِأَهْلِ الْفِقْهِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ (...) وَإِنَّمَا الطَّرِيقُ الْحَسَنُ اعْتِيَادُ الْخِطَابِ بِالْعَرَبِيَّةِ حَتَّى يَتَلَقَّنَهَا الصِّغَارُ فِي الْمَكَاتِبِ وَفِي الدُّورِ، فَيَظْهَرَ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَكُونَ ذَلِكَ أَسْهَلَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي فِقْهِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ، بِخِلَافِ مَنِ اعْتَادَ لُغَةً ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ يَصْعُبُ. وَاعْلَمْ أَنَّ اعْتِيَادَ اللُّغَةِ يُؤَثِّرُ فِي الْعَقْلِ وَالْخُلُقِ وَالدِّينِ تَأْثِيرًا قَوِيًّا بَيِّنًا، وَيُؤَثِّرُ أَيْضًا فِي مُشَابَهَةِ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمُشَابَهَتُهُمْ تَزِيدُ الْعَقْلَ وَالدِّينَ وَالْخُلُقَ. وَأَيْضًا فَإِنَّ نَفْسَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ؛ فَإِنَّ فَهْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. ثُمَّ مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْأَعْيَانِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ (...) عَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!- أَنَّهُ قَالَ: "تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ، وَتَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ"، وَهَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!- مِنْ فِقْهِ الْعَرَبِيَّةِ وَفِقْهِ الشَّرِيعَةِ، يَجْمَعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الدِّينَ فِيهِ أَقْوَالٌ وَأَعْمَالٌ، فَفِقْهُ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى فِقْهِ أَقْوَالِهِ، وَفِقْهُ السُّنَّةِ هُوَ فِقْهُ أَعْمَالِهِ"؛ فإتقانُ عربيةِ ما يجبُ من الإسلام إسلامٌ لغويٌّ، وإتقانُ عربيةِ ما فوق ذلك منه إيمانٌ لغويٌّ، وإتقانُ عربيةِ ما به يُشابَه صدرُ هذه الأمة من الصحابة والتابعين إحسانٌ لُغويٌّ!

- تواصل الماضي والحاضر والمستقبل والمشرق والمغرب والشمال والجنوب، في التفكير والتعبير باللغة العربية الفصحى:

○ الاستماع، والتحدث، والقراءة، والكتابة...

أَيا جارَتا إِنّا أَديبانِ هاهُنا وَكُلُّ أَديبٍ لِلْأَديبِ نَسيبُ

لكأني بي واقفا على امْرِئِ القَيْسِ مِنْ قَبْلِ أن ينتهي إلى مُخَلَّده، أُحَرِّفُ له بيتَه، فيعجبُه التَّحريف، ويُدْهشُه مُجَمَّعُ ما بيني وبينه على انفراط الدهور، فأُذَكِّرُه ثلاثة الأعمال الكِبارِ التي نَظَمَ بها أَدَبَه، أنَّني تمسكتُ بها أصولًا لغوية تفكيرية لا أزيغ عنها حياةً، فَدَقَقْتُه في أوردتي، فيستنكر الاستطالة عليه، فأفصِّلها له وكأنْ مجلسي بالجامعة قد انعَقَدَ، مُتَرَنِّمًا من انعكاس المقامين:

أولها التحديدُ-يا مولانا- وبه كنتَ تُقلّب مادة الكلام العربي حتى يظهر لك ما تريد. وثانيها الترتيبُ، وبه كنتَ تُقدّم من هذا الظاهر وتؤخر، حتى يستقر لك ما تريد. وثالثها التهذيبُ، وبه كنت تحذف من هذا المستقر وتضيف، حتى ينفرد لك ما تريد، رائدك في كلٍّ منها العَروض الذي طَرِبتَ له أوَّلًا، فأقبلتَ تُغَنّيه ومَعازِفُك مفرداتُ الكلام العربي المبين.

فيُقْسم بهواه - قاتله اللهُ!-:

- إنْ خطرَت لي تلك الأعمالُ ببال!

فأقسم بربّي -سبحانه، وتعالى!-:

- إلّا تكن خَطَرَتْ لك أسماءً، لقد خَطَرْتَ بها أفعالا!

فيُطْرِقُ منشدا:

- "بَكى صاحِبي لَمّا رَأى الدَّرْبَ دونَهُ وَأَيْقَنَ أَنّا لاحِقانِ بِقَيْصَرا

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّما نُحاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَموتَ فَنُعْذَرا"،

نَدَمًا أَنْ لم يَنْتَجِبْ للرِّحلة، فَانْقَطَعَ، وأنْ كانت إلى قَيْصَرٍ، فَاسْتَعْجَمَ!

نعم، فمن مجلسي هذا الآن في عَيْلَمٍ (مكتبي في جزيرة الروضة، من القاهرة الباهرة)، أستطيع أن أتلوَ ما تيسر من القرآن الكريم والشعر النفيس والنثر الشريف، فأسمعَ أصواتا عدد النجم والحصى والتراب، تُردّد ما أصبتُ، أو تكّمل ما نقصتُ، أو تصوّب ما أخطأتُ- وإن كنت أخشى أن تتبدَّل مخارجُها وصفاتُها، فتنتسخ -معاذ اللهِ!- وتمتسخ!

ثم نعم، فقد درجَت هذه الأمة من قديم، على ألا يتجاوز أبناؤها طفولتهم حتى يستوعبوا من الكلام العربي المبين، ما يؤيدهم في مقامات الاستماع والتحدث والقراءة

والكتابة جميعا معا، ولعل من ذلك ما أُثِر عن العرب قبل الإسلام من إرسال أطفالهم مُدَّة مَديدة، إلى قبائلَ غيرِ قبائلهم، ينهلون من مناهلها صفو الفصاحة والبلاغة واللَّقانة، وهو ما جعلته من مناهج التأليف في العربية قبل القرآن الكريم، بهذه المحاضرة:

http://mogasaqr.com/.../%d9%85%d8%b3%d8%ac%d9%84-%d9%85.../

لقد انتجع المتنبي قديما بلاد فارس، وقال فيها نونيته البديعة:

"مَغَاني الشِّعْبِ طِيباً في المَغَاني بمَنْزِلَةِ الرّبيعِ منَ الزّمَانِ

وَلَكِنّ الفَتى العَرَبيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ وَاليَدِ وَاللّسَانِ"؛

فلم يكد يتجاوز بانبهاره بيت مطلعها، حتى نَغَّصه فيما وَلِيَه بالاستيحاش من العُجمة!

وهو بلا ريب ألطف ذوقا من ذلك البدويّ الذي قال في مثل حاله:

- "لَعَنَ اللّهُ بِلادًا لَيْسَ فِيهَا عَرَبُ"!

ولعله لو مر اليوم في طريقه من إحدى المدن الأعجمية، فسمع العربية- لهربَ مِن متكلمها!

- تكامل اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية، على رغم الاستقلال:
  - الخلود، والعموم، والفاعلية، والخصوصية...

عملت لجامعة السلطان قابوس العمانية -طَيَّبَ اللّهُ ذِكْرَاهَا!- ربع قرن تقريبا، وأحاط بي من العرب حيث أعمل وحيث أقيم، إخوةٌ وأصدقاء وزملاء مشارقةٌ ومغاربة، واتصلت بيني وبينهم الحوارات، وفهمت كلامهم العامي، وافتتنتُ به سياحةً لغوية مجّانية، وظننته يجري على ما فهمت، حتى نبهني بعضهم على أنه إنما يجتهد حرصا على إفهامي، أن يُجريَ عاميتَه مَجرى الفصحى، وأن يستبدل بغرائب عاميته قرائب الفصحى، وكأنما خشي مثل حالِي الصديقتين العمانية والمصرية اللتين بَنيتُ عليهما مقالي "التباسُ العمانية والمصرية":

http://mogasaqr.com/2018/06/17/16213/

"صديقتان بحيّ من أرياف عمان: عمانية ومصرية، متآلفتان على عهد العمانيين والمصريين جميعا، لا تخرجان إلى السوق إلا معا، تذهبان وتؤوبان مشيا، غير كالّتين ولا مالّتين. هاهما كأنما خدعتهما عن الطريق حَكاياهُما الكثيرة الطويلة؛ فأبعَدَتا الغايةَ، واستثقلَتَا المشيَ، وإذا حافلةُ ركابٍ على مقربة، فتصيح العمانية بالمصرية:

- اسْتَنّي!

فتطمئن المسكينة المهدودة، فتفوتهما الحافلة!

و{اسْتَنِّي} في العمانية {أَسْرِعي}، فصيحة عالية من {الاسْتنان}، ومادتها {س، ن، ن}، غير أن المصرية على لهجتها فهمتها {تَمَهَّلي}، محرفة عن {اسْتَأْنِي}، من {الاسْتِيناء}، ومادتها {و، ن، ي}"!

ألا إنه لا غنى بالعامة عن الفصحى القريبة، كما لا غنى بالخاصة، فلو كانت المصرية تعرف أن "اسْتَنِّي" "أَسْرِعي"، أو لو كانت العمانية قالت: "أَسْرِعي" لا "اسْتَنِّي"- ما فاتتهما الحافلة!



آجَالٌ

منذ أسبوع هجم كورونا على أسرة أحد أحبابنا، فلم يكونوا أشد فزعا وحَدَبا على أحد منهم على أمهم القديمة المرض، فماتوا جميعا، وعاشت هي، حفظها اللّٰه، ورحمهم، وطيب ثراهم! فذكرتُ أسرة من قرية أصهاري، فرَض كبيرُها الحج على شيخوخته وأمراضه، فأبت أختاه إلا أن تصحباه -ولم يكن أحبَّ إليه من أن يموت ويدفن في البقعة المباركة مع الرعيل الأول من حملة الخير، رضي اللّٰه عنهم!- فماتتا هما كلتاهما -رحمهما اللّٰه، وطيب ثراهما!- ورجع هو دونهما!

اخْتِبَارُ عِلْمِ الْعَرُوضِ لَا يُجَابُ إِلَّا بِالدَّمِ

- السلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته!

دكتورنا الفاضل،

أعتذر عن قطرة الدم التي سقطت من إصبعي على ورقة الاختبار، فإنني لم أرها قط إلا بعد أن سلّمتك الورقة، فقد كنتُ أرغب بالحصول على الدرجة النهائية، ومن شدّة تعمّقي على ورقة الاختبار فإنني لم أشعر بما يحصل من دم وغيره! فعسى أن يكون بعد ذلك الجهد وشقّ الأنفس شيء من الصواب، وأن تقرّ عيني بتلك الدرجة النهائية المُبهِجة، ولو أنني أتوقّع خلاف ذلك!

رأفةً بنا يا دكتورنا الفاضل في عملية التّصحيح!

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته،

أسعد الله بالخير مساءك، وبالنور سماءك!

قطرة دمك هذه -يا ابنتي الغالية- وسام على جبين الاختبار!

قطرة دمك هذه -يا ابنتي الغالية- بكل ما أجابه الطلاب منذ اختُرعت الاختبارات!

قطرة دمك هذه -يا ابنتي الغالية- خرجت من إصبعك لتتمشى في عروق تمثال التلمذة الشريفة كتمشي نُسغ الأرض في النبات!

بارك الله فيك،

وأدام عليَّ نعمته بك،

والسلام عليك!

- شكرا لك دكتور على كلماتك المُلهِمة!

عسى أن أكون عند حسن ظنك.

آمين -يا رب العالمين- جميعا!

أَمَّا هذَا فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ

"عِشْ مَا شِئْتَ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ، فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ"،

صدق رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

التعزية في العربية التسلية أي التنسية، ولولا أن يهلك بعض الضعفاء نفسه في حبيبه الميت لوجب أن ينهى عنها بعضنا بعضا، لا أن يذكره إياها قائلا: هيّا نعزِّ فلانا عن حبيبه!

"خَانَكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُوحُ

لِدَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ دُنُوٌّ وَنُزُوحُ

هَلْ لِمَطْلُوبٍ بِذَنْبٍ تَوْبَةٌ مِنْهُ نَصُوحُ

كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ

أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنَّ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ

فَإِذَا الْمَسْتور منَّا بيْنَ ثوبيْهِ فضُوحُ
كَمْ رَأَيْنا مِنْ عَزِيزٍ طُويَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
صَاحَ مِنْهُ بِرَحيلٍ صائِحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ عَلَى قَوْمٍ فتُوحُ
سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا جَسَدًا مَا فِيه رُوحُ
بيْنَ عَيْنَيْ كلِّ حَيٍّ عَلَمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
كُلُّنا فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ
لِبَنِي الدُّنْيا مِنَ الدُّنْيا غَبُوقٌ وَصَبُوحُ
رُحْنَ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحْنَ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
كُلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَه يَوْمٌ نَطُوحُ
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْكِينُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمِّرْتَ مَا عُمِّرَ نُوحُ"،
أو كما قال أبو العتاهية، رحمه الله!

ينبغي ألا ينسى الحيُّ الميتَ؛ فهو الميتُ الحيُّ اللاحقه عما قريب -"إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"، صدق الله العظيم!- فأما هو فقد ذهب، ولن يرجع؛ وليس أسخف عقلا ممن وهِم أن الميت يشعر بالحي؛ فعامله مثلما يعامل الأحياء- إلا مَن أمَر إذا مات أن يُفعل به ذلك!

على أن وهم هذا السخيف شديد الموعظة للعاقل، بأَنْ أَدرِكْ نفسك قبل الفوات؛ فلن تستطيع بعد قليل شيئا: "عِشْ مَا شِئْتَ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ، فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ"، صدق رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

بَرَاءُ

يَأْتِي بَرَاءُ إِلَى الدُّنْيَا عَلَى فَرَسٍ مِنِ اسْمِهِ فَيُبِيدُ الْهَمَّ وَالْوَجَعَا
حبيبي أبا مالك،

لو لم تتقطع العلاقات إلا علاقتنا، ما تحير الأبناء في الآباء حتى صاروا يتعجبون من يقينهم وإخلاصهم وإتقانهم وثباتهم ورضاهم، ولا ارتاب الآباء في الأبناء حتى صاروا يتعجبون من شكهم وريائهم وإهمالهم وطيشهم وسخطهم!

لو لم تتقطع العلاقات إلا علاقتنا، لخاض الآباء والأبناء جميعا معا وسط معمعة اليقين والإخلاص والإتقان والثبات والرضا، فاستووا منها على جُوديٍّ، أو تحوّلوا إلى حيث يستوون.

فيا آباء العالم انعطفوا على أبنائكم!

ويا أبناء العالم انعطفوا على آبائكم!

واعلموا جميعا أنكم إنما تسعون إلى السعادة بعمران الأرض في رحاب رضا رب العالمين!

تَلَامِذَتِي الْعُمَانِيِّينَ النُّجَبَاءَ، حَيَّاكُمُ اللهُ، وَأَحْيَانَا بِكُمْ!

خريف عام ٢٠١٩ الجامعي، ذكر لي سامي المزروعي تلميذي العماني النجيب رئيس جماعة اللسان العربي النشاطية الطلابية، بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، من جامعة السلطان قابوس- أنه خيَّر بعض أعضاء الجماعة على مفترق اجتماعاتهم، فاختاروني؛ فحَيَّيْتُهم بهذه الرسائل الشعرية!

- بنيتي العزيزة، خديجة بنت عبد الله البوصافية،

خَدِيجَةٌ وَهْيَ شِعَارُ الْكَمَالْ بُنَيَّةٌ تَغْلِبُ جَمْعَ الرِّجَالْ
كَانَتْ إِذَا مَا سَلَّطَتْ عَقْلَهَا تَسَهَّلَتْ كُلُّ صِعَابِ الْمُحَالْ

- بنيتي العزيزة، روان بنت أحمد الشكيلية،

كُلُّ الْأَغَانِيِّ إِلَيْهَا رَوَانْ وَبِالْأَمَانِيِّ عَلَيْهَا حَوَانْ
وَهَكَذَا تَبْلُغُ مَا تَشْتَهِي بِمَا تُؤَدِّيهِ الْخِلَالُ الْحِسَانْ

- بنيتي العزيزة، سالمة بنت خلفان الغدانية،

سَالِمَةٌ فِي نَفْسِهَا غَانِمَةْ كَأَنَّهَا بِأَمْرِنَا قَائِمَةْ
تَظَلُّ تَرْتَاضُ عَصِيَّ النُّهَى فَتَصْطَفِيهَا الْوَثْبَةُ الْقَادِمَةْ

- بني العزيز، محمود بن سليمان الشبلي،

شِبْلِي مَحْمُودٌ وَهَلْ مِثْلُهُ يَرْتَاحُ حَتَّى يَشْتَفِي صَوْلَهُ
يَسْكُتُ إِلَّا عَنْ حَدِيثِ النُّهَى وَيَمْلَأُ الدُّنْيَا نُهًى قَوْلُهُ

- بني العزيز، مكتوم بن علي البادي،

سِرُّ الْهَوَى عِنْدَكَ مَكْتُومُ إِلَّا عَلَى أَهْلِكَ مَقْسُومُ
بَيْنَ الَّذِي تَمْلِكُ أَوْ تَشْتَهِي وَصْلٌ حَثِيثُ السَّعْيِ مَعْلُومُ

- بني العزيز، منصور بن عبد الله المسلمي،

مَنْ يَنْصُرُ الرَّحْمَنَ مَنْصُورُ وَمَنْ يَصُونُ الْعِلْمَ مَأْجُورُ
فَاجْعَلْ عَلَى بَالِكَ مَا شِمْتُهُ فِيكَ لِحُسْنُ الظَّنِّ مَشْكُورُ

- بنيتي العزيزة، هاجر بنت محفوظ الغاوية،

مَحْفُوظَةٌ هَاجَرُ فِي أَهْلِهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوِ مِنْ وَصْلِهَا
تَسْعَى بِأَخْلَاقٍ لَهَا بَرَّةٍ تُوَزِّعُ الْخَيْرَ عَلَى مَهْلِهَا

- بنيتي العزيزة، هبة بنت سعيد الجديدية،

كَأَنَّهَا بِكُلِّ خَيرٍ هِبَةْ مَا أَطْيَبَ الْأَصْلَ وَمَا أَعْجَبَهْ
بُنَيَّةٌ تَبْسُطُ مِنْ ظَنِّهَا حَتَّى تَسُرَّ الْأَنْفُسَ الْمُتْعَبَةْ

تَلْوِينٌ

فولة، يا أعجب أحبابي، في عيد مولدك الرابع عشر، زلزلني قولُك:

- كأنني في غيابك أرسمُ بقلمِ الرصاصِ لوحةَ حياتي، حتى إذا ما عدتَّ لونتُها!

حَقِيبَةٌ

اختبأ في غرفته يُجِّهز حقائبه، فدخل عليه ابنه الصغير الذي كَرِهَ سفره الطويل:

- ليتني حقيبة تأخذها معك!
- وتترك أصحابك كريمًا، ومؤمنًا، وأحمدْ سعيدْ!
- أنت أحب إليّ من ألف أحمد سعيد، وألف مؤمن، وألف كريم!

حَنِينٌ

بني الحبيب فراتا، سلام الله عليك ورحمته وبركاته!

لقد اشتقت إليك كثيرا، أنا والمسجد والبيت والسيارة والنادي وكارفور...، حتى صرت أناديك وكأنك معي، وأتذكر تصرفاتك وأضحك عليها!

قريبا نلتقي بمشيئة الله، ونعمل معا كل ما تعودنا أن نعمله، نصلي، ونأكل، ونلعب، ونقرأ، ونكتب، وننام...

سنعمل معا كل شيء بمشيئة الله، حتى نعوض ما فاتنا بهذا التباعد، الذي عمل كل واحد منا فيه أعمالا أخرى مهمة، أنت في مدرستك وأنا في جامعتي.

أعاننا الله جميعا على عمل الخير،

ورزقنا خير العمل،

آمين!

شَمِيمٌ

لما استغلقَت على أسرته الصغيرة في غيابه الطويل سبُلُ سفرها في أحد الأعياد إلى عائلته الكبيرة، لجأ بها ابنُه الكبير إلى سيارته الممتنعة بضخامتها وفخامتها، فاختطف منه مفتاحَها أخوه الصغير، وسبق إليها مع جَدّته التي آثَرَت الباب الخلفي، فاجتذب باب السائق، وقعد في مقعده يتحسس ملامسه ويتشممها وكأن ليست خلفه جَدّتُه ترى وتسمع وتتقطَّع:

- عَرَقُ أَبِي! الله! عَرَقُ أَبِي!

الشَّيْخَانِ

يسلم عليكم الشيخ شعبان، ويقول لكم:

- عمي الشيخ رمضان على الباب؛ فهل من براح فيدخل، أم زحام فيرحل؟

عِلَاجٌ

إِنْ عَقَّكَ أَبُوكَ فَلَا تعقّه، لِكَيْلَا يَعُقَّكَ ابنُكَ، وَاقْطَعْ دَابِرَ السُّنَّةِ السَّيِّئَةِ!

غَايَاتٌ

- ما لأبي بكر عبد الله بن الزبير بن العوام؟
    - ركع حتى ظنته طَيْرُ الحرم جدارا، فحطت على ظهره!
- وما لأبي الحارث الليث بن سعد الفهمي؟
    - تصدق وهو العظيم الثراء، حتى لم تجب عليه زكاةٌ قط!
- وما لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي؟
    - كتب حتى انخلعَت كتفُه، وقرأ حتى عَمِيَتْ عيناه!

فُرَاتٌ

فرات محمد جمال صقر

أنا بحبك يا بابا وعايزك تيجي بسرعة

أو أنا أحبك بسرعة أنا يا بابا شفت صورة

البيت بتاعك على الفيس بوك البيت بتاعك كان عجبني

أنا يا بابا كنت بروح أصلي فلمزجد وكنت بفتكرك

وكنت بدمع شوية

اطَّرِحُوا عن بالِكُمْ -يا أحبابي- اطَّرِحُوا عن بالِكُمْ: كُلَّ ما تَجَرَّعتموه من خبائث الجهلاء، وكُلَّ ما تَحَفَّظتموه من فرائد الحكماء، وكُلَّ ما تَوَهَّمتموه من لطائف الأدباء- وانظروا معي طَوِيلًا طَوِيلًا طَوِيلًا، في رسالة ابْنِي الأصغر فُرَات، التي حُمِلَتْ إلى أخي

الحبيب الأستاذ الدكتور محمد عبد الفتاح العمراوي في رحلته الأخيرة وَحْدَهُ إلى القاهرة الفاخرة، فأَوْصَلَها إليَّ وَحْدي بمَسْقَطَ من سلطنة عُمان!

ولا تُفْلِتَنَّكُمْ: مَشْغلةُ فُرَاتٍ الكُبْرَى فيها، ولا دقائق أفكاره بها، ولا مداخل تَوَصُّلِه إليها، ولا أساليب تعبيره عنها، ولا أخطاؤه اللغوية والإملائية في أصواتها وصيغها ومفرداتها وتعبيراتها وجملها وفقرها -فنحن قوم من العرب المسلمين بُداة غير جُفاة، نُعَبِّر بأخطائنا عما لا يُعَبِّر عنه الناس بأَصْوِبَتِهِمْ!

وبالله لا تنسوا ما أَهْمَلَه من نُقَط حروفها؛ فبالله ما أَهْمَلَها إِذْ أَهْمَلَها، ولكنه زَرَعَها في قلبي؛ فإذا كُلُّ نُقْطَةٍ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ "أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا:

تَجُولُ فِي الْبُيُوتِ وَالْقُلُوبْ
رَائِحَةُ الْحَبِيبْ
تَزْكُمُ أَنْفَ الطِّيبْ
تُقَاتِلُ الْوَحْدَةْ
فَتَقْتُلُ الْوَحْشَةْ
سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَهَا!

فِرَاسَةٌ

وَاجِهُوا الْوُجُوهَ -يَا أَحْبَابِي- وَاجِهُوا الْوُجُوهَ، وَوَازِنُوا بَيْنَهَا ابْيِضَاضًا وَاسْوِدَادًا: كَيْفَ كَانَتْ، وَكَيْفَ صَارَتْ؛ فَلَنْ تَخْلُوَ سِيَرُ الْأَلْوَانِ مِنْ سَرَائِرِ الْأَحْوَالِ، بَلْ تُشِيرُ إِلَيْهَا، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا!

مِنْ مُصْطَفَى عِرَاقِي حَسَنْ فِي الشَّاهِدِينَ إِلَى الْغَائِبِينَ فِي دَارِ الْعُلُوم

[١]

يَا صَمْتَاهْ
هَا إِنَّ هَا هُنَا لَأَسْرَارًا لَيْتَنَا نَجِدُ لَهَا حَمَلَةً
هَا إِنَّ هَا هُنَا لَأَسْرَارًا نَحْذَرُ إِنْ نَكْتُمْهَا أَنْ يَفْرِسَنَا الْمُفْتَرِسُ

[٢]

سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
لِيَدْخُلَ مِنْهُ الْمُحِبُّونَ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ
إِلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ

[٣]

يَا شَوْقَاهْ
شُدُّوا أَيْدِينَا بِأَيْدِيكُمْ
وَأَلْسِنَتَنَا بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَأَفْئِدَتَنَا بِأَفْئِدَتِكُمْ
فَنَحْنُ أَهْلُ سَفِينَةٍ وَاحِدَة
يَنْبَغِي أَلَّا نَدَعَ أَحَدًا فِيهَا يَخْرِقُهَا
وَلَا أَحَدًا وَرَاءَهَا يَغْصِبُهَا
وَإِلَّا هَلَكْنَا جَمِيعًا
فَانْتَبِهُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَبَّهُوا

[٤]

سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
لَهُمْ
لِيَسْتَنْشِقُوا مِنْ عَبِيرِ الْجِنَانِ الْمُعَطَّرِ بِالطُّهْرِ
وَالنَّفَحَاتِ الرِّطَابِ الْإِلَهِيَّةِ السِّحْرِ

[٥]

يَا عَجْزَاهْ
أَمَا آنَ لَنَا أَنْ نَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ

إنَّ الشَّبَابَ حُجَّةُ التَّصابِي
رَوَائِحُ الجْنَّة فِي الشَّبَابِ
رَوَائِحُ الجْنَّة فِي الشَّبَابِ
رَوَائِحُ الجْنَّة فِي الشَّبَابِ
فَاصْبُوا إِلَى الجْنَّة لَا سِوَاهَا
وتَنَسَّمُوا مِنْهُمْ رَوَائِحَهَا
فَمَا نَشِيدُهُمْ إِلَّا حَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَى بِلَادِ الْأَفْرَاحِ
الَّذِي ذَكَرَهُ سَلَفُنَا الصَّالِحُ
وَغَفَلَ عَنْهُ خَلَفُهُمُ الطَّالِحُ

[٦]

سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
سَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا
لَهُمْ وَحْدَهُمْ
وَنَدْخُلُهُ بَيْنَهُمْ
وَنُغْلِقُهُ خَلْفَهُمْ
لِنُعْلِنَ لِلْعَالَمِ الْمُسْتَبِدِّ الحْقُودِ الْمُشَوَّهِ
أَنَّ الْمُحِبِّينَ قَدْ جَمَعُوا أَمْرَهُمْ
وَقَدْ عَرَفُوا رَبَّهُمْ

[٧]

يَا خَوْفَاهْ
كُلَّمَا كَبِرَتْ سُنُونَا كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا
فَلَمْ نَدْرِ مِنْ كَمْ نَتُوبُ
وَلَا فِي كَمْ نَعُودُ
فَتَأَمَّلُوا أَنْفُسَكُمْ فِي مِرْآتِهِمْ يَتَأَمَّلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مِرْآتِكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَتَأَمَّلُوهَا جَمِيعًا فِي مِرْآةِ كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
"بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ"؛
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

هَدِيَّةٌ

- يا لقساوة قلبك، أما تَنِدُّ من عينيك لفراق أَبَوَيْكَ دمعة، أوَما يخطر لك عنهما خاطر!

قال:

- بلى، أتخيل أعمالهما دائما، وأدعو لهما في فرائض صلواتي ونوافلها، وأهبهما سورة الملك بين مغرب كل ليلة وعشائها، لعل ملائكة آخر اليوم يبلغونهما عني ذلك على أطباق من نور الجنّة مُسلِّمين: هذه هدية اليوم!



زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ

لِلصَّمْتِ مِنْ ثِقَلِ الْكَلَامِ صَهِيلُ يَأْوِي إِلَى وَطَنِ النُّهَى وَيَقِيلُ
جَرَّدْتُ مِنْ وَشَبِ الرِّيَاءِ عَقِيرَتِي وَصَرَخْتُ لَوْلَا الْخَوْفُ وَالتَّأْمِيلُ
اَللّٰهُ يَا أَللَّهُ يَا أَللَّهُ وَانْفَتَحَتْ وَرَاجَ الْأَمْنُ وَالتَّهْلِيلُ

من جامعة السلطان قابوس وإليها، تنفجر بين يديها سبع أعين، بل سبعون، بل سبعمئة...، ويتدفق الماء في عروق أفلاجها الظاهرة والباطنة؛ فتنبت بالفن والعلم بيْداءُ الحوْضِ، وتأوي إليها زهرة الحياة الطيبة. وعلى جانبي طريق الوقت المستقيم تحتشد النخيلُ شُهودًا على اليقين والإخلاص والإتقان والثبات والرضا، واحَتَيْن اثنتين، في يد إحداهما مَقاليدُ باب الفن، وفي يد الأخرى مَقاليدُ باب العلم؛ فلا يَدخلُ مِن أحدهما داخلٌ حتى يدخل من الآخَر مثلُه، ليجتمعا معا في ميزان التكامل على كلمة سَواءٍ، فيها مِن تَخْييل الفنّان مثل ما فيها مِن تَحْقيق العالِم. حتى إذا ما حَظِيَ كلُّ داخل بحظِّه ساح فيها موقنًا بأصوله وفروعه وعلاماته، مخلصًا للحق وحده فيما يأتي وما يذر، حريصًا على إدراك الإتقان ولو كان في بروج مشيدة، ثابتًا على ذلك لا يَضرُّه من ضل إذا اهتدى، راضيًا بما يناله من تقدير.

ابْتِسَامُ الْحَجْرِيَّةُ

لم أكن عام ١٩٩٧، أعرف أنها في طلاب قسم اللغة العربية بجامعة السلطان قابوس، بمنزلة أمهم؛ تقعد من خلفهم تكاد لا تتكلم، وإن تكلمت أوجزت وكان لصوتها جَرس حكيم- وإلا لصدَّرتُها منذ المحاضرة الأولى لتكفيني ما استبدَّ ببعض تلميذاتي من معالم النفور العارض! ولكنني وكنت أتخذ للتوقيع العروضي وغيرِه عصًا مثل عصيّ قادة الفرق الموسيقية أسميها "ليلى"، ولا أدع عند تسميتها للطلاب إنشادهم:

"كُلٌّ يُغَنِّي عَلَى لَيْلَاهُ مُتَّخِذًا لَيْلَى مِنَ النَّاسِ أَوْ لَيْلَى مِنَ الْخَشَبِ"-

بلغني أنها بعدما تخرجَت وعملَت معلمة، اتخذت عصًا مثل عصاي، وسمَّتها قيسا! ثم ضرب الدهرُ ضرَبانَه؛ فعادت إلى الجامعة بعد ربع قرن باحثة جادة منطلقة تحصد الماجستير والدكتوراة والثناء الكبير، تلميذتي النجيبة الدكتورة ابتسام الحجرية.

إِحْسَانُ اللَّوَاتِيُّ

ما زلت منذ استمعت إليه أوائل هذا القرن الميلادي يعرض عقله ورأيه بين يدي رغبته في عضوية قسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، إلى أن رأَسَه منذ عامين -وبين طَرَفَيْ هذه المدة مقاماتٌ كثيرة مرئيّة ومرويّة- أشهد له بالمهارة والروعة. ولقد كنت أظن أنه مشغول عن تحصيل الخبرة الإدارية، بهمومه العلمية والثقافية الكبيرة الكثيرة المؤثّرة، فلما رأس القسم دلتني الهموم الإدارية نفسها على أنها كانت دائما في طي همومه تلك العلمية والثقافية، وإذا سِرُّ الأمر ومِلاكه الإتقان الذي إذا استولى على الإنسان ملك عليه ليله ونهاره، مغانم اغتنمها في عنفوانها، أخي الحبيب الدكتور إحسان اللواتي.

أَحْمَدُ الْعَبْرِيُّ

من أواخر تسعينيات القرن الميلادي العشرين إلى أوائل ما بعدها، كنت المشرف الفني على جماعة الخليل الأدبية بعمادة شؤون الطلاب من جامعة السلطان قابوس، وكان هو المشرف الإداري، متوقد المشاعر العربية الإسلامية، شديد الحرص على جمع الشمل، جميل الصبر على منع الصدع، شاعرا أصيلا كريما، أحد أدلة قولهم وهو خريج الدراسات

الإسلامية: لا يكون الفقيه فقيها عندنا (العمانيين)، حتى يكون شاعرا!- دؤوبا على إنشاء الملتقيات وإدارة الأنشطة والمشاركة فيها والتحبب إلى أهلها رعاية وتكريما، وكأنما انطوت فيه عمان كلها، أخي الحبيب الأستاذ أحمد بن هلال العبري.

جُوخَةُ الْحَارِثِيَّةُ

خريف ١٩٩٧، سألتها هي وزملاءها، أن يصوغوا لي من أحد الجذور اللغوية المُشكِلة، بعضَ الأبنية في بعض العبارات، على أن يضبطوها حرفا حرفا، فمالت برأسها عن الأسئلة إلى يسارها، فنفضتُ من توفيقها يدي، ثم جمعت أوراق الطلاب، لآتيهم بها من المحاضرة التالية، وأعرضها عليهم منوها بتوفيقها الكبير دونهم ودرجتها الكاملة! لقد كان ميلها ذاك إلى يسارها، إمعانا في الإتقان والإبداع، درجت عليه برغم نشأتها الرغيدة في عائلتها المجيدة، هي وذروةُ تفوقٍ لم تفارقها حتى حصلت على الدكتوراة الإنجليزية، ثم نالت قبل غيرها من العرب جائزة مان بوكر العالمية (جائزة أفضل الأعمال الأدبية المترجمة إلى الإنجليزية)، بعد أن نالت كبرى الجوائز العربية، وصارت من أهم الوجوه العمانية. طيَّبَ الله ذكرى حرصها القديم على تأسيس شعبة تدرس عليّ النصوص الأدبية دراسة لغوية، ثم على عرضها إحدى قصصها الأولى عليَّ لأعنونها لها -وكانت عن أم فقدت رضيعها ولم تفقد إحساسها به في سريره، فسميتُها لها "حياة المَهد"، وحصلت بها على أولى جوائزها الجامعية- ثم على أن تحضر معي وهي معيدة بعض محاضراتي، ثم على أن تقرأ عليَّ في مكتبي بعض الكتب المهمة، ثم على دعوتي أنا وأسرتي إلى قصر أبيها الجليل المنيف، الذي أحسنَت فيه ضيافتنا هي وأسرتها، ثم ساحوا بنا في معالم بلدتهم الرائعة، تلميذتي النجيبة الدكتورة جوخة الحارثية.

حُمَيْدٌ الْحَجْرِيُّ

بعد زمان من تخرجه في جامعة السلطان قابوس لقيته بإحدى أسواق مدينة مسقط، فهش لي كثيرا وبش متذكرا "أيامنا الحلوة"! وكان أحد نجباء من تحملوا عام ١٩٩٧، تجاربي التدريسية الأولى الغريبة العجيبة، صابرين محتسبين وراضين مُحْتَفِين - جزاهم الله عني خيرا!- حتى لقد اتفقنا بعد زيارته الأولى لي في مكتبي من قسم اللغة

العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قادما من قسم اللغة العربية بكلية التربية، على لقاء دوري نناقش فيه دون حرجٍ ما نستشكل من مسائل اللغة العربية والمذاهب الإسلامية! يزورني منطويا على مِزاجَين مُعتلجَين من القدامة والحداثة، متطلعا إلى مزاجٍ ثالثٍ ربما ظنه عندي! ثم افتتن بنقد النثر الفني الحديث حتى حصل فيه على درجة الماجستير، ثم بتوظيف الإحصاء في نقد الأسلوب الأدبي حتى حصل فيه على درجة الدكتوراة بإشراف المختار كريم صاحب الكتّاب الفذ "الأسلوب والإحصاء"، ثم انفتحت له أبواب الجامعات والمؤتمرات! وعام ٢٠١٩، أنصتُّ إليه بإحدى جلسات "المصطلح في العربية: القضايا والآفاق"، مؤتمر القسم الذي اتسع للقاءاتنا القديمة، يتكلم في "بنى الاشتقاق في صك المصطلح الفلسفي المعاصر"، فعرفت كيف تكون ثمرة المسعى الجليد الحثيث، تلميذي النجيب الدكتور حميد بن عامر الحجري.

خَالِدٌ الْعَبْرِيُّ وَسُعُودٌ الظَّفْرِيُّ

بعد "ترجمة رملية لأعراس الغبار لعبد الله البردوني: قراءة خاصة"، محاضرتي العامة التي حاضرت بها طلاب جامعة السلطان قابوس مساء أحد أيام عام ١٩٩٩ الجامعي، خرجت أطلب سيارة تحملني إلى بيتي بحي الخوض من مدينة مسقط العمانية، فاعترض طريقي بعض الطلاب وفيهم اثنان من أنجب تلامذتي، يأبون إلا أن يوصلوني. كانت عادة طلاب هذه الجامعة الكريمة -طيب الله ذكراها وذكراهم!- أن يتشاركوا جماعةً جماعةً بأقساط من مرتباتهم الجامعية في شراء سيارة خاصة، ثم بعدما ينتهون من دراستهم كلها يبيعونها غيرَهم، أو يأخذها أحدُهم ويوفّي شركاءه أنصبتَهم! وفي السيارة على أثر المحاضرة الآنفة والمحاورة الحاضرة، قال لي الطالب السائق على مسمع تلميذَيّ: الآن عرفت سر تعلقهما بك! كنت من دفعتهما الفريدة (دفعة عام ٢٠٠١) -وما زلت- في أسرة حميمة، يتسابق أدبُهم واجتهادُهم، وتتوالى صنوف تحبّبهم، لا يصرفهم عني ثِقلُ اختبار، ولا سوء درجة! ولقد اتحدت في الذروة منهم درجة اختبار تلميذَيّ هذين، وخشيت أن أظلم أحدهما بالآخر، فخلطت بعضهما ببعض في تكريم واحد، خلعتُ فيه على كلٍّ منهما نَسَب الآخر، تنبيهًا على ما ينبغي أن تكون عليه الأخوةُ الخالصة التي يقول فيها للأخ أخوه: يا أنا! ثم تخرَّجا، وعلى اختلاف وظيفتيهما أقامهما إجلال العلم على طريق الدراسات العليا،

تحصلا جميعا على الماجستير، ثم سبق إلى الدكتوراة أحدهما؛ لعله يمهد لأخيه، تلميذاي النجيبان خالد العبري وسعود الظفري.

خَالِدُ الْكِنْدِيُّ

لم أستغرب همته النَّحوية العالية، في جمع الحديث إلى القديم، من مناهج البحث ومذاهب الرأي ونظريات الضبط وآليات التطبيق، ولكنني استطرفت كثيرا موهبته الفنية الروائية ونشاطه المجتمعي التعليمي؛ إذ أسفرت تلك الموهبة عن إبداع عماني أصيل، وهذا النشاط عن نقد توجيهي بنّاء. قلت له مرة أثني على ما حصَّله في مدة قصيرة من إنجاز كبير: صدق من قال: "العلمُ كِندي"، فقال مُتملِّحًا مُتحرِّجًا من ثنائي التحرُّجَ العمانيَّ المعروف: هو اليوم هندي، أخي الحبيب الدكتور خالد الكندي.

خَمِيسْ قَلَمْ

إن جاز أن يكون تلميذٌ ركنا يأوي إليه أستاذه كان هو إياه، ولكنه مثلما كان الركن الشديد حينا كان الركن الخفيف: فأما خفته فلطافة مشاعره الطيبة التي استطاع وهو التلميذ أن يؤنس بها أستاذه، وأما شدته فطلاقة إنصافه الأصيل الذي استطاع به دائما أن يأخذ من أستاذه وأن يأخذ له! نعم؛ فمثلما كان يغضب أن يُسامى مقامُه حتى يوشك لولا نضاله أن يُقتحم، كان يغضب أن يُسام ميزانُه حتى يوشك لولا عِيانه أن يجور! طامح جريء، وعاشق بريء، وشاعر وضيء، ثلاث خصال كريمة، تحفزه، وتحفظه؛ فهو مشغول أبدا بأحبابه، معتذر ببعضهم عن بعض، تلميذي النجيب خميس قلم.

زَاهِرُ الدَّاوُدِيُّ

أحسب أن الحق -سبحانه، وتعالى!- لم يخلق أهدأ منه بالا، ولا أخفى صوتا! ولولا تحريكه شفتيه ما عرفت أحيانا أنه يتكلم، وإن كان قريبا! ولعله أعانه على ذلك زواجه صغيرا ثم انفراده في دفعته الجامعية بين الطالبات كبيرا! وإذا اجتمع للإنسان هدوء البال وخفاء الصوت لم يتركاه حتى يستنزلا له من سماء الربّانية أسمى الأخلاق؛ فأنت معه في روضة من رياض الجنة، تلميذي النجيب الدكتور زاهر الداودي.

سُعَادُ الْعَجْمِيَّةُ

في بيان أسلوب الاختصاص ذكرتُ لتلامذتي خريف عام ١٩٩٧، قول رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!-: "نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ"، وكلَّفتُهم تفتيش الكلام العربي عنه هو وغيره من الأساليب النحوية المقررة، فجعلَت بحثها في شعر الكميت بن زيد الأسدي، بين يدي مقدمة جيدة من إحصاء العناصر الدالة؛ فأعجبني ما فعلت، وأثنيت به عليها، فكأنما جرَّأتها، فتجرَّأت أن لامتني على ذِكْر ذلك الحديث الذي لا تصبر على سماعه -فكفكفتُ من شططها- وعلى قَصْرِي أسئلة الاختبار على الأسئلة الإبداعية -فأجبتُها إلى تنويعها- ثم تجرأت أن دعتني إلى الإمامية بإطلاعي على إصدارات المركز البريطاني وكتب شرف الدين الموسوي، وأنكرَت عليّ بقائي خارج المذاهب لا أعرف معروفا ولا أنكر منكرا -فاطلعتُ عليهما، واستبقيتُ كتب الموسوي- ولولا تخرجها ما انقطع تجرؤها! ولكنها زارتني عام ٢٠١٧، مثلما زارتني عام ١٩٩٧، تستعينني على رسالتها للماجستير في نصيّة "نهج البلاغة"، وأستعفيها عن كتب الموسوي التي استبقيتُها، تلميذتي النجيبة سعاد العجمية.

صَائِبَةُ الدِّرْعِيَّةُ

لا أدري كيف عثَرت عام ٢٠٠٤ على رقم هاتفي المصري، بعدما تركتُ عُمان أول مرة عام ٢٠٠٣، فأرسلَت إليّ من داخل احتفال وزارة التربية والتعليم السنوي تقول: الآن أُكرَّم بما علَّمتَني! ثم بعد زمان طويل يزور القاهرة في حاشية السلطان قابوس سلطان عُمان -رحمه الله، وطيب ثراه!- أخوها الضابط الكبير الآن، فيأبى إلا أن يزورني في بيتي من جزيرة الروضة ومعه صديق عمره، وإذا بها قد حمَّلته هدايا ثمينة جمعَتها لي من أرجاء الأرض، ثم يظل هذا دَيْدَنَها إلى الآن، لا تدع فرصة تتوصَّل إليَّ فيها -مهما كان مكاني، ومهما كان زماني!- إلا اغتنمَتها فأرسلَت إليَّ ما أعدّته لي من طرائف ولطائف وعجائب وغرائب، ولا والله ما كان الذي فعلتُه لها ولدفعتها الفريدة بجامعة السلطان قابوس (دفعة ٢٠٠١)، غير أنني كنتُ حريصا على أن أنتفع أنا وأستمتع أنا، فاستمتعوا هم وانتفعوا هم، تلميذتي النجيبة صائبة الدرعية.

عَبْدُ اللهِ الْكَعْبِيُّ

هو أحد من افتتنوا عن تخصصاتهم بجامعة السلطان قابوس: فكان منهم من تحول عن دراسة الطب إلى دراسة فنون اللغة العربية وعلومها، ومنهم من تحول إليها عن دراسة الهندسة، وكان هو أحد من تحولوا إليها عن دراسة العلوم؛ لله الحمد عليهم والشكر! ومثل كل عماني أصيل كان بريء الطبع سليم القلب صدوق الأدب دؤوب الطلب. تعلقت بي دراستُه مثل غيره من دفعته الفريدة (دفعة ٢٠٠١)، وخلصت تلمذته، وحسنت، ولم يتخرج حتى ألَمَّ بنظم الشعر؛ فجعلتُه في شعراء محاضرتي "شعر الشباب: دم العقل ووجه الجنون"، فنشط حتى اجتمع له ما نشر به كتابه الشعري الأول، ولم يلق بالا لمن أنكر عليه من شعراء زملائه خروجه لهم فجأة، بل اشتغل دونهم بتأسيس وعيه النقدي، حتى حصل فيه على الماجستير، ويكاد يحصل فيه أيضا على الدكتوراة؛ فلما أضاف إلى طلب فن الشعر طلب علمه فُرِقَ له عن أنماط من النصوص الشعرية والنثرية، شديدة اللطافة والحداثة، تلميذي النجيب عبد الله الكعبي.

عَبْدُ اللهِ الْكِنْدِيُّ

في باحة بيت أخي الحبيب الأستاذ الدكتور طه نجم من حي الخوض المسقطي العماني، مساء أحد أيام أواخر تسعينيات القرن الميلادي العشرين، تجالسنا وتسامرنا، وكان هو في الجمع الفتى الرشيق الوسيم اللبيق، الذي اختتم قريبا دراسته بكلية الآداب من جامعة الإسكندرية -فغلب عليه هوى سكندري واضح- ثم لم يلبث على فتائه أن تولى نيابة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، ثم عمادتها، ثم رئاسة قسم إعلامها؛ فكان -وما زال- وجها شديد الوجاهة، أصيلا نجيبا نبيها، يستوي عنده أن تلقاه وأن تهاتفه -فحفاوته البالغة واحدة، وخدمته الحاصلة واصلة- ولا يستغني عنه بلد ناهض طامح، أخي الحبيب الدكتور عبد الله الكندي.

عَلِيٌّ الْفَارِسِيُّ

كان شديد الفخر بِصُور (محط أنظار المتطلعين إلى محافظة الشرقية العمانية)؛ فهي العَفيّة -صفة صاغها أهلها من العافية عامّيةً مطلقةً- أول مشارق الشمس العربية، المتخلقة

بأخلاق البحر طيبا وذكاء، لم يخل بدرجته الثانوية العالية على قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية من جامعة السلطان قابوس- ولا بإخلاصه المستمر، حتى إذا ما تخرج فيه ولم يوظف به استعاض بمحاولة الماجستير فيه، وكيف وهو المبتلى بمحبة أحد تلامذة محمود محمد شاكر -رحمه الله، وطيب ثراه!- الذي حُرِم محبتَه هو وتلميذه من كان يخوض فيهما بمحاضراته، فأفسدَ محاولته، فلجأ إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب من جامعة الملك سعود، فاحتفى به أهلُه طلابا وأساتذة احتفاء كبيرا، وكأنما يوفونه هو وحده حق عمان كلها! ثم آب منه بالماجستير إلى جامعة السلطان قابوس وقد خلا له وجه القسم، فدرس عليَّ بعض مقررات الدكتوراة، ثم أنجزها بإشرافي، ثم حَظِيَتْ به كلية الآداب من جامعة الشرقية! نعم، فلم يكفَّ منذ عمل بها -ولاسيما بعد تأسيسه قسم اللغة العربية ورئاسته إياه- عن استحداث البرامج والمقررات التي أَجْدَتْ كثيرًا على الطلاب والأساتذة والكلية والجامعة، تلميذي النجيب الدكتور علي بن حمد الفارسي.

مُحَمَّدٌ الْحَجْرِيُّ

عام ٢٠٠٠ رغب وهو خريج الدراسات الإسلامية، في ماجستير اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية من جامعة السلطان قابوس، فكُلف دراسة بعض المقررات التكميلية، لأجده أمامي في طلاب علم العروض، ومنذئذ لم تختلف جنودُنا المجنَّدة! يا ما أكثر ما ارتحت بارتياحه ونشطت بنشاطه وابتهجت بابتهاجه! ولم يكن لمثل هذه الألفة أن تنقطع بانقطاع المحاضرات: كيف أنسى مروره بي في مكتبي ليلا حيث أعكف وحدي على القراءة والكتابة إلى قريب من السحر، وتعجُّبه من صبري على هذه المخَافة! أم كيف أنسى رحلته بي إلى صحراء قريته، حيث تزلَّجنا بسيارة أخيه أشد مما يفعل رواد الملاهي وكأنما ينسخ بهذه المخَافة تلك! أم كيف أنسى احتفاله الكريم بي قُبيل سفري عن عمان احتفال الودود المطمئن! شاب زكي ذكي طموح لبيق ظريف بشوش، تجاوزت به مواهبه هذه الأصيلة في سبيل الدراسات الأدبية، من الماجستير العُمانية إلى الدكتوراة الماليزية، دون أن يكسل في أثناء ذلك عن مشاغله الإعلامية المؤثرة، التي استضافني منها للمناظرة في مسألة "إعادة قراءة التراث"، أنا والمستشار عبد الجواد ياسين صاحبة "السلطة

في الإسلام"- حتى حظي عن ثقة أهله ومحبيه بعضوية مجلس الشورى الذي تفجرت فيه ينابيع أفكاره الخدمية النافعة، تلميذي النجيب الدكتور محمد سعيد عامر الحجري.

مُحَمَّدٌ الْمَحْرُوقِيُّ

أواخر تسعينيات القرن الميلادي العشرين، رحل في طلب الدكتوراة الإنجليزية، ولكنه ترك في قسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، سيرة طيبة جدا، شوقَتني إلى لقائه الذي لم يتيسر حتى انتقل إلى قسم اللغة العربية من كلية العلوم والآداب بجامعة نزوى، ورأس بها تحرير مجلة الخليل المحكَّمة الغرّاء، وحضر عام ٢٠١٥ مؤتمرنا الدولي "المناهج النقدية الحديثة: النص الشعري قراءات تطبيقية"، واستمع إليّ، فأخذ عليّ شدة إيجاز كلمتي -وما زلت في المؤتمرات بين المُفرط والمُفرط- ثم قدر الحق -سبحانه، وتعالى!- أن يؤلف بيننا أدبٌ يجعله ينسخ مأخذه ذاك بقوله: أنت قبيلة من الفنانين والعلماء، أخي الحبيب الدكتور محمد المحروقي.

مُحَمَّدٌ الْمَعْشَنِيُّ

هو أحد من إذا تكلموا العربية من الظفاريين سكتت عنهم لغتهم الجبّالية، هذه التي يعتذر بغلبتها بعضهم -غيرَه وغيرَ إخوانه- عن تقصيرهم في إتقان العربية، ثم أحد من رصدوا حياتهم لدراسة ما أحاط بالعربية من اللغات الجزرية، ثم أحد المشغولين بالحَراك الاجتماعي الثقافي السياسي الخارجي والداخلي. أواخر تسعينيات القرن الميلادي العشرين حللتُ قسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، وكان في طلب الدكتوراة الإنجليزية، فوجدت من سيرته الطيبة ما لم يغب كثيرا عنه؛ إذ آب قريبا، لنتفيأ منه شغفا بمصر والمصريين شاغفا ومحبة خالصة، ولاسيما في رئاسته القسم من بعد، التي كانت دائما بردا وسلاما على أعضائه جميعا، أخي الحبيب الدكتور محمد المعشني.

مَحْمُودُ الرِّيَامِيُّ

أحد حملة الفن والعلم النحارير الخبراء الذين لم يلُقوا بالا لتقاليد الترقّي الجامعية، لم ينشأ موقف إلا حضره في التعليق عليه شعر، ولا مشكل إلا كان له في إزالته رأي، ولا مسألة إلا كان عنده في جوابها بيان، يرتجل ذلك ارتجالا بليغا يتسابق فيه قلبه وعقله! ولقد تذاكر العمانيون مرة مثقفيهم وأنا منصت، فذكرتُه هو وأحد من لهم نشاط إذاعي ظاهر وكأنهما من طبقة واحدة، فأجلُّوه عن ذلك، وإذا الشهرة آخر ما يخدع به العمانيون، وإذا له عندهم -ولاسيما في أعماق بلادهم- منزلة كبيرة، أخي الحبيب الدكتور محمود الريامي.

مَرْيَمُ الذَّهَبُ

لم أنتبه لكآيتها عن إثقالي بالتكاليف عليها هي وزملائها (خرِّيجي ٢٠٠١)، حين قالت لي: دائما تشغلنا مقرراتك عن غيرها! وكنت أظنها أول الظن عبارة عن الفرح والهمة، ولاسيما أنني لم أجد منها غير الاجتهاد والإتقان! ثم كانت كالمتكلم بلسان القوم، تنشرح لما يَضِح فتشرق معالمُها، وتكتئب لما يَغمُض فتغرب؛ ثم تزورني في مكتبي، تتعقب هذا وتلهج بذاك! وربما سمعتني أسخر على الملأ من عربية بعض زملائها أنها إلى الهندية أقرب وبها أعلق، فنبهتني -وهي الشريفة النسب- على هندية أصول بعض العائلات العُمانية! ثم ضرب الدهر ضَرَبَانَه، وإذا شاب كريم فاضل يدعوني إلى العشاء ببيته، وإذا هو زوجها قد أعدَتْه عَدواها، حتى كانا يشتغلان في الأماسيِّ العَسليّة بقراءة بعض مقالاتي، وكنت في زيارة عُمانية قصيرة عام ٢٠٠٥، فجاءني إلى حيث أقيم من جامعة السلطان قابوس، يحملني إلى بيته، وإذا هي وابنهما، فلم نكد نتحرك بالسيارة حتى بادرنا ابنهما ينشدنا من حفظه ترحيبا -ولم يكن أحبَّ إليّ قط من رؤية تلامذتي في أُسَرهم- تلميذتي النجيبة مريم صالح الذهب.

مُعَاوِيَةُ الرَّوَّاحِيُّ

إذا جاز أن أوصف بالمصري العماني، فإنني أصفه بالعماني المصري! نعم؛ فقد نشأ في مصر على عين أبيه الدبلوماسي، يدرس مع المصريين في مدارسهم، ويتقدّمُهم، ثم

يؤوب إلى عمان أوائل القرن الميلادي الحادي والعشرين، شاعرا شابا جسيما قسيما وسيما، متحدر الشَّعر على الجبين، مفتون الشِّعر بنزار قباني وأمل دنقل ومحمود درويش وأدونيس- فيغريه بكلية الطب تقدّمُه، ويحمله إليَّ بقسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، شِعرُه! لم نكد نرتاح إلى لقاءات دورية حتى رحلتُ عن عمان فجأة -وإن لم تنقطع صلتي بها ولا به- لأُدعى بعدئذ إلى جامعة طيبة من المدينة المنورة، فأجيب مصليا مسلما! وهناك أصادف له مقالا جريئا، يظهر لي فجأة، فيشغلني عن عملي، يقصر فيه ريادة أنشطة طلاب جامعة السلطان قابوس، على أربعة أساتذة عمانيين، كنتُ أحدهم -!- فأطلب شكره، فيستعفيني منه بأنه حقي عليه وعلى إخوانه. ولعله إنما حمله على ذلك افتقاده من يَصْدُقه ويَدلّه، وانخداعه بمن يَكْذِبه ويُضلّه، حتى إذا ما افتضح له ذلك اتخذ السخرية منه جزاءه، ثم صارت ديدنه حتى عرَّضَته للمتربّصين، فَطَوَتْ من زهرة شبابه سنواتٍ عاناها سجينا مرة وطريدا مرة، حتى فرج الله عنه كربته، ورد غربته، وجمع شمله، وأنعم باله، فخلصَت له نفسُه وعيًا وصلاحًا، فأَخلَص أهلَه وبلدَه التوعيةَ والإصلاحَ، تلميذي النجيب معاوية بن سالم الرواحي.

مَكِّيَّةُ الْكَمْزَارِيَّةُ

لم أكد أحلّ عُمان أوائل زيارتي الرابعة عام ٢٠١٢، حتى دعتني نائلة البلوشية تلميذتي العُمانية النجيبة، إلى برنامجها الإذاعي "حديث الروح"، فأجبتها حَفيًّا ساعتين كاملتين، بأن أقص من أمري على المستمعين، ما يوقنهم بسهولة تحصيل ما حصَّلتُ، على كل محب مقبل مجتهد. ثم لم تكد تفتح باب المشاركة حتى جاءني من وراء بضعة عشر عاما، صوتٌ يذكرني -وإن لم أنس قط- فتاة حكيمة ودودًا لبيقةً مُتَمَلِّئة بتراث أهلها الثري الفريد، كانت في مساكن الطالبات تقضي بين المشرفات، وفي مكاتب الأستاذة تتأنق بعربية فصحى في لهجة خاصة! ولقد أسرَّ إليَّ قريبا أحد نجباء تلامذتي، أنها كانت مشرق محبته هو وسائر زملائهما، فلم يقع عندي سرُّه هو وزملائهما إلا على مثله! ولم تكن تلك الأعوام لتمر بها في مدينتها المطمئنة إلى نصيبها الفذ من بحر عُمان، إلا محتفلة باجتهادها المتنامي وعيا وعزما وتصميما وبناء ووفاء، تتابع وتراعي وتحافظ وتقارن وتفاضل، حتى استحقت ما توالى عليها من وجوهِ تكريمٍ يغري بعضها بعضا. وإني لأتطلع من على أكتافها

هي وجيلها، إلى مستقبل عُماني يتزايد بهم ثراؤه وغناؤه وبهاؤه، تلميذتي النجيبة مكية الكمزارية.

نَصْرُ الْخَرُوصِيُّ

إن للغة العربية لجنودا من طلاب اللغة الإنجليزية، يتعلمونها أحسن تعلم ليخدموها أحسن خدمة! هكذا كان -وما زال- لا يدع عملا يشارك به طلاب اللغة العربية من جامعة السلطان قابوس إلا عَمِلَه نشيطا حفيا. ولقد رُزق من أساتذة الترجمة من زاده باللغة العربية شغفا إلى إرثه المجيد منها، حتى زارني بمكتبي من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية -وما أكثر من كان يزورني فيه من قسمه!- فوجدته على حظوته بآلات التلَهي غير مشغول إلا بتحصيل آلات التعلم؛ فبذلتُ له نفسي، وما أسرع ما اتصل بيننا من معالم منهج زيادة التلميذ على أستاذه الذي ختمت به كتابي "مهارة الكتابة العربية" -ولا والله ما كان الذي فعلته له بأعظم من الذي فعله لي!-: حسن صحبة فارتياحا فمودة، وتحري مصلحة فثقة فانتصاحا، ورعاية فاستيعابا فزيادة، حتى صار الآن وهو أحد المترجمين الرسميين النابهين، أحرص مني على فنون اللغة العربية وعلومها وفنون الإسلام وعلومه، تلميذي النجيب نصر الخروصي.

هِلَالُ الْحَجْرِيُّ

صيف عام ١٩٩٨، دعاه معي إلى حفل تخرجهم خريجو قسم اللغة العربية بكلية التربية من جامعة السلطان قابوس، ورأيت تقديرهم الكبير له ولم يكن بعدُ قد سافر في طلب الدكتوراة الإنجليزية، وسمعت خبر سَبق رسالته للماجستير إلى دراسة مشكلات تعليم علم العروض قبل المرحلة الجامعية، مثلما سمعت خبر قصيدته التي وظفه في الجامعة إنشادُه إياها السلطانَ قابوس، رحمه الله، وطيب ثراه! ثم خريف عام ٢٠٠٥، زرت قسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، بعقب نيله الدكتوراة الإنجليزية وعمله فيه، وعرفت اشتغاله العلمي الكبير بحضور بلده في التراثين العربي والعجمي كليهما جميعا معا، ووجدت أثره الثقافي الواسع، واطلعت على نتاجه الفني الخاص. ثم حظيت

خريف عام ٢٠١٢ بعضوية القسم في أثناء رئاسته؛ فحدث ولا حرج عن رئاسة المثقف الأصيل الشاعر الفنان، أخي الحبيب الدكتور هلال الحجري.

يُوسُفُ الْبَادِيُّ

عام ٢٠١٢-٢٠١٣ الجامعي كنت مقرِّر لجنة التوظيف بقسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، إذ اجتمعَتْ لها في طلب وظيفة منسق القسم عشراتُ الملفات العمانية، وكنا على رأس العطلة الأسبوعية التي يحسن أن نخرج منها إلى أول الأسبوع بخطاب توظيفٍ ذي ثلاثة أسماء مرتبة الأفضلية، يمضيه سائر أعضاء اللجنة، إلى إدارة التوظيف العليا، ليسلك مسلك الإنجاز؛ فجعلت الملفات مشغلتي، تفتيشا وترجيحا، حتى اصطفيت ثلاثة كانوا أجمع من غيرهم للمواهب المطلوبة، ثم وجدته دون صاحبيه المشغول بالتعبير الكتابي؛ فقدمته عليهما في خطاب التوظيف، ثم مكنته من الموافقة، ليطلع علينا من مكتبه بعد حين، شابا جسيما قسيما وسيما لطيفا جليدا نشيطا لبيقا، لم يحظ أحد من القسم بحظٍّ إلا أحسَّ أن له منه نصيبا ظاهرا أو باطنا، ولم أره وكان جاري إلا فرحتُ بالتوفيق قائلا: جارُ البادي أسعدُ العبادِ، أخي الحبيب الأستاذ يوسف البادي.



إِحْرَاجٌ

- ألا تكفي أولادك كبيرا ما أحرجك صغيرا؟
- وهل أكبرَني إلا ما أحرجني!

ازْدِجَارٌ

وجدها فرصة، فنقل لي عن ول ديورانت في المجلد الحادي عشر من "قصة الحضارة"، قوله:

- "من بين النتائج المهمة لوباء الموت الأسود في منتصف القرن الرابع عشر، والذي قضى على نصف إلى ثلث سكان أوروبا- أن سطوة الخرافات الدينية التي عاشت فيها أوروبا في القرون الوسطى، تزعزعت، ومهد ذلك لعصر النهضة، ومهد أيضا للإصلاح الديني داخل الكنيسة"؛

فعلقت له عليه قولي:

- عسى سطوة المادية التكنولوجية المعاصرة أن تتزعزع هي كذلك تحت وطاة سيدك الكورونا المتجدد، فنتنظف، ونتنفس، ونتعرف حدنا، ونتوب إلى ربنا!

اشْتِهَاءٌ

- ماذا تشتهي؟
- أن أشتهي!

أَعْرَاسٌ

رآه يأبى إباء شديدا أن يحتفل بأعراس أولاده مثل احتفاله الجاهلي؛ فتساخر به:

- نعم؛ كيف يجوز لتقيٍّ ورِع مثلك أن يحتفل بأعراس أولاده مثلما يحتفل أمثالي من الفَسَقة الفَجَرة!

فقال له:

- بل كيف يجوز لِعصاءٍ مثلي كثير الذنوب أن يزداد بأعراس أولاده ذُنوبًا!

إِعْرَاضٌ

وماذا كنتَ تنتظر منه وقد افتضحتَ له؛ فصبرَ عليك حتى تفلَّتَ من بين يديك دون أن يخضع لك، معرضا عنك سلامًا سلامًا سلامًا؛ فإذا آثارُ اغتيابك له على وجوه بعض من يلقاهم بعدك أو أخبارهم!

أَمَانَةٌ

لقد كنت تعجب لأهل بلد يستغيثون على أميرهم، بمن تجمعهم به جوامع العقيدة والمنهج والغاية، أن يقتله ويحكمهم، تظن بهم ظن السوء؛ فلعلك عرفت الآن أمانتهم بعد ما وجدت من ذلة بعض الأمراء لعدو بلده وتنافس حاشيته وأعوانه في مساعدته على ذلك!

إِنْجَازٌ

- متى تجلس لإنجاز ما تشرّفتَ به من أعمال؟
- حين ييأس من أن أنجزها طالبوها!

إِيمَانٌ

- ما قولك شيخا فيما كنت تراه شابا؟
- زاد إيماني به، وقلت حماستي له!

بَابُ التَّسْوِيَةِ

أمس (١٩/١٠/١٤٤٠=٢٢/٦/٢٠١٩)، اصطففنا لصلاة المغرب في أحد المساجد المقتطعة من مداخل بعض العمارات القاهرية، ومن فوقنا بواطن سلالمها البارزة المائلة، نوشك -إن لم تقع على رؤوسنا- أن نصطدم بها!

ثم أدركَنا مِن عن يساري رجُلٌ قصير القامة صغير الجسم أشيب الشعر، خاف الاصطدام وأنا أولى منه بالخوف مرتين، فجذبني إلى طرف السجادة من خلف خط الصف المخطوط وكنت أنا يسار الصف بعيدا من قَلْبه، فلم أنجذب، ثم جذبني، فلم أنجذب، ثم جذبني وتركني إلى من عن يميني، يجذبهم واحدا واحدا، حتى انجذبنا جميعا!

سلّمنا من الصلاة، واشتغلتُ بختامها، فأقبل عليّ يلومني؛ فكأنما أرسله إليّ الحق -سبحانه، وتعالى!- لأبوح بما أخذته من قبل على المصلين، فأستريح:

- كان ينبغي لك أن تذهب إلى قلب الصف خلف الإمام، فتجذبه هو أولا، فننجذب بانجذابه من عن يمينه ويساره!
- قد فعلت!
- لم تفعل إلا بعدما أبيتُ أن أنجذب لك!
- تقبل الله منا ومنكم!

ماسحًا على ركبتِي المثنية، قائما عني، مستغفرا!

خرجت من المسجد، فلقيني القيِّم عليه، فسألني خبر تلك المُسارّة الغريبة التي رآها ولم يسمعها، فأخبرته، فابتسم ابتسام من جرب مثلها حتى لم يعد يأبه له!

بِدُونٍ

في معرض عامنا هذا (٢٠٢٠) القاهري الدولي للكتاب، مر بإحدى المكتبات الكويتية، فتذكر كاتبة كويتية عروبية إسلامية مجاهدة قديرة، فمال يسأل عن كتبها

الكُتبيّين المصريين والكويتيين المتعرّضين للبيع، فبادرتهم إليه صاحبةُ المكتبةِ الكويتيةُ مَعنيّةً حَفيةً، فلم يكد يسألها عن كتب تلك الكاتبة، حتى عبسَت، ثم أَبلَسَت، ثم اعتذرت عن عدم عرضهم كتبها -فقُتلت كيف اعتذرت، ثم قُتلت كيف اعتذرت!- فقالت:

- هذه من "البدون"!

تَبَاعُدٌ

- أما لك من غاية تتعلق بها فتسعى إليها لترتاح عندها؟
- بلى، ولكن كلما بلغتها تباعدت!

تَحْذِيرٌ

إذا دعوت بعض الناس إلى بيتك فاستأذنك في اصطحاب غيره، فألغ الدعوة من أصلها، واستحدث في وقتها ما لا تكذب إذا اعتذرت به؛ فلن يكون من تُستأذن فيه إلا زِمّيتًا يستثقل الناس رُؤيته، أو متكبرا يكرهون صُحبته، أو حسودا يتوقّون نَظرته، فإن لم يكن أحدَ هؤلاء كانَهُ مَن استأذنك، وكنتَ أنت المخطئ الغافل!

تَحَرُّرٌ

- هَيَّا اسْتَخْرِجْ بِطَاقَةَ عُضْوِيَّةِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى تَأْخُذَ فُرْصَتَكَ!

... عام ٢٠٠٤.

- خُذْ هَذِهِ الِاسْتِمَارَةَ بِتَزْكِيَتِنَا فَانْضَمَّ بِهَا إِلَى حِزْبِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَدَالَةِ!

... عام ٢٠١١.

- مَنْ يَظُنُّونَهُ حَتَّى يَتَوَقَّعُوا أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى حِزْبٍ فِي عُنْفُوَانِهِ!

تَفَاضُلٌ

احتججتَ لفضلك عليه -ولا موضع لحجة والد على ولَد- بأن الناس إذا هو أحسن قالوا: ما شاء الله، ابن أبيه- وأنهم إذا أنت أحسنت لم يقولوا: ما شاء الله، أبو ابنه! فما تقول

وقد جلستَ قريبا بمجلس من العجَم صالَ هو فيه دونك وجالَ، حتى ترجم لك من كلامهم: من أنجب مثل هذا الابن لم يخدعنا عن فضله صمتُه!

حَيَاةٌ

- لماذا لا تكثر الكلام في الدعوة إلى ثقافتك؟
- إذا سئلت أجبت، ولكن لا دعوة إليها مثل أن أحياها!

خِذْلَانٌ

يعرف كما تعرف أنك انتفعت به جاها وصيتا واستفدت منه مالا وعلما، ولكنك لا تشكر ولا تذكر ولا يمنّ عليك ولا يُذكّرك، ولو فعل لآذاك، ولكنه يخاف اللهَ! ولو فعلت لسرَرته، ولكنك تخاف الشيطان! فالله حسبه -وكفي بالله نصيرا!- والشيطان حسبك، وكفى بالشيطان خذولا!

خَشْيَةٌ

مَا كَانَ أَكْثَرَ ابْتِهَاجَهُ فِي شَيْخُوخَتِهِ بِالْحِسَانِ وَطُمُوحَهُ إِلَيْهِنَّ، لَوْلَا خَشْيَتُهُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُنَّ الْأَعْجَزَ الْأَقْبَحَ!

خِيَانَةٌ

يتبرأ بعض العرب اليوم من عروبتهم، ويسلمون لعدوهم مقادتهم، وينصرون رأيه فيهم؛ فهل يُستنكر عليهم أن يتواصوا بتكريه تراث محمود محمد شاكر إلى العرب، وهو الذي بذل في توثيق عروبتهم جهده وعمره، أم هل يُستبعد أن يحظروا عليهم قريبا ذكر اسمه!

دَعْوَى

بالإنجليزية المُصمتة دُعيت هذا الأسبوع إلى تحكيم ملف ترقية أحد أساتذة اللغة العربية بإحدى الجامعات العربية -وفيه مقالات واضحة الحرص على توجيه السياسة اللغوية

العربية بما يَردُّ على لغتنا بعضَ ما سُلِبَته- فأجبت الدعوة إجابة عربية صريحة، فأُسند إليّ التحكيمُ بخطاب إنجليزي رسمي، قطع عليّ سبيل القلق، وطمأنني على مسيرة الإصلاح!

رُؤْيَتَانِ

يحار طويلا ويقلق ويأرق في إبان الفتنة الكبرى، من يرى السياسة فن الممكن: ماذا يقول في إصلاح ذات البين، وماذا ينقل من أقوال غيره؟

أما من يرى السياسة فن الكذب فلا يحار أبدا ولا يقلق ولا يأرق!

رِسَالَةٌ

قال لك:

- يتهمك بعض الطلاب بتفضيل من تعرف منهم على من لا تعرف!

فقلت له:

- تهمة بلا دليل، ماذا أفعل بها؟

فقال:

- لا تفعل شيئا، إنما أردت إبلاغك.

فقلت له:

- لا بأس، وليتك تبلغني ثناءهم أيضا، فكما ننتفع بمعرفة الذم ننتفع بمعرفة المدح!

سُوءُ نَشْرِ "شَخْصِيَّةُ مِصْرَ"

لماذا تنشر دار الهلال "شخصية مصر" كتاب جمال حمدان الأهم الأخلد، ما دامت عاجزة عن حقه! أهو الحرج من شدة مطالبتنا بنشره؟ وماذا عن الحرج من شدة وطأته على الفاسدين والمفسدين: هل اكتفت في إزالته بما حرصت عليه من سوء نشره!

شَيْخُوخَةٌ

سَعِيدٌ جِدًّا أَنْ صَارَ بَيْنَ الشَّبَابِ شَيْخًا، فَحِينَمَا كَانَ شَابًا خَسِرَ ذُكُورَهُمْ بِالْغَيْرَةِ وَإِنَاثَهُمْ بِالْحَيْرَةِ!

ضَلَالٌ

ليس أخبث ولا أحمق ولا أفسد من أن ترتاح الآن ليتعب أولادك من بعدك!

طَلْعَةٌ

تساخر بك على ملأ من أصحابكما:

- لقد كنتُ رئيسَه، وكان يخافني؛

فعاجلتَه:

- ومن يَرى هذه الخِلقة العكِرة -ولم يكن حسن الطلعة- فلا يخاف؛

فضحكوا، وما زالوا!

عُرُوبَةٌ

- ألا تنشط لتفنيد مقالات المستخفين بالعروبة؟

- حسبهم اشتغالي بالعربية استماعا وتحدثا وقراءة وكتابة!

عَهْدٌ

رَأَتْهُ سَخِيفًا فَاتِرًا شَحِيحًا غَبِيًّا زَائِفًا، وَلَوْلَا عَهْدٌ تَعَهَّدَهُ لِغَيْرِهَا لَوَجَدَتْهُ الْأَلْطَفَ الْأَحْمَى الْأَسْخَى الْأَذْكَى الْآصَلَ!

غَدْرٌ

كيف تتهم بالفساد الأكبرِ المختارَ لرئاسة المؤسسة التي طمعتَ في رئاستها، دون أن تتهم أعضاءها الذين اختاروه جميعا، إلا أن تكون قد بيَّتَّ النية على أن تغدر بهم مثلما غدرت به!

غَلَاظَةٌ

اصطحبا إلى أستاذهما المريض في المستشفى الفرنسي بالقاهرة يعودانه، فلما استقر بهما عنده المجلس قال له أحدهما:

- ما لهذه الأيام! قريبا مرض أستاذنا فلان، ومات أستاذنا فلان، واليوم تمرضون! كأنها موكَّلة بأخذنا!

فقال:

- نعم؛ أولًا بأول!

ثم لم يكادا يتجاوزان غرفة المستشفى حتى بحث صاحبه عن جهة خالية، ثم انفجر ضحكا!

فَسَادُ أُسْتَاذِ الْجَامِعَةِ

[على ذكر غضب المجتمع الجامعي المصري،
على إحدى أستاذات الجامعة المتبذِّلات]!

وهل أستاذ الجامعة إلا ابن مجتمعه، مثلما كان الطبيب والنائب والقاضي والمحامي...، أفإن صار أستاذ جامعة انخلع من أصله وتحول! لا، بل تظل فيه أصوله التي تتبدى كلما وجدت منفذا. فالكلام إنما ينبغي أن يكون في عموم التربية والتعليم والتدريب وتخطيط ذلك ومتابعته ومراقبته. يذكرون أن السمكة تفسد من رأسها، يتوهمون أنهم إذا قطعوا رأسها سلم لأكلهم جذعها، وهيهات؛ فلو لم تتحول إلى الفساد السمكةُ كلُّها جذعًا ورأسًا ما فسد منها شيء؛ فمن ثم ينبغي أن تطهر لها بيئتُها، ويصلح لها برنامجُها كلُّه.

زعموا أن سمكة أبًا أقبل يعلم ابنه كيف يتقي صنارة الصياد، قائلا:

- سيتدلى خيط دقيق فيه خُطّاف حديد فيه دودة مشقوقة، فإياك أن تشتهاها فتلتقمها؛ وإلا علقت بالخُطّاف، وانجذبت إلى بر الإنسان، وصرت إلى بطنه اللعين!

قالوا: وفي أثناء ذلك الشرح الصادق الحميم الوافي، هبطت عليهما شبكة لا صنارة، فأحاطت بهما، وضمتهما إلى غيرهما، وانجذب بها إلى بر الإنسان قليلا قليلا سمك كثير؛ قال السمكة الابن للسمكة الأب:

- أهذه هي الصنارة التي وصفت لي -يا أبي- وحذرتني؟

قال:

- دِي الْمُصِيبَة اللِّي هَتْشِيلَكِ انْتَ وَاللِّي خَلَّفُوكْ!

قالها بالعامية المصرية!

كِبْرِيَاءُ

لما وجد كبرياءك أراد أن يهينك على ملأ من أهل العلم، فقال:

- قد صرتَ أستاذا، فمتى نرى لك كتّابا ككتّاب فلان،

فعاجلتَه:

- يكفينا في هذا الأمر كتّاب فلان، فأما أنا فلي مشاغل أخرى،

فلم يرفع إليك من بعدُ بصره!

كَيْفَ أُعَاهِدُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأْسِك

أزعم أن الحق -سبحانه، وتعالى!- الذي خلق الأفعى والفلاح، وخالف بين طبيعتيهما، وسخرهما جميعا ليحييا حياة طيبة بعمران الأرض في رضاه، فتعاديا عداءً اتصل باختلاف طبيعتيهما، واستمر استمرارهما حتى استحكم استحكام طبيعتيهما أنفسهما- لم يكن ليسلِّط بعضهما على بعض، ولكنه طول الغفلة الذي انقلب به بعض الفلاحين أفاعي وبعض الأفاعي فلاحين!

مُغَايَرَةٌ

- ألا ترى أنك تَعترِضُ أعمالَك بعضَها ببعض؟
- بلى، لعل بعضها أن يغار من بعض!

مُمَثِّلُونَ

صعدنا معا الدرج إلى حيث موظفو رئاسة جامعة القاهرة، ولكنه كان متلفّفًا بما ظن أنه يخفيه عن الناس، متجنبا سواء السبيل كأنما يريد الصعود من داخل الجدار! تركته يسبقني إليهم، ولم أدخل حتى خرج! استوسمت منهم من قلت له:

- أليس هذا أحمد ماهر الممثل؟
- بلى.
- فلِمَ يستخفي، ألأنه ممثل! يا أخي، كلنا ممثلون!

فتبسّم الموظف الوسيم، واحتفى بإجابتي إلى ما جئتُه فيه!

مُنْتَهَى الْفَذَاذَةِ

صدقت، فالدين حبالة المتسلطين، يُوّمون به الأفراد لينسلكوا في سلك الأمة التي تهون عليها فذاذة الفذ إلى جماعة القطيع، فتبًّا لكل ما يُقيد الفرد، إلا أن يكون وظيفته التي يدوم في دوامها ويهيم في هيامها، ففي وظيفته يقيد نفسه حبًّا وكرامة ونعمة عين، لإيمانه بأنها وحدها المعنية من قديم بقول المتنبي:

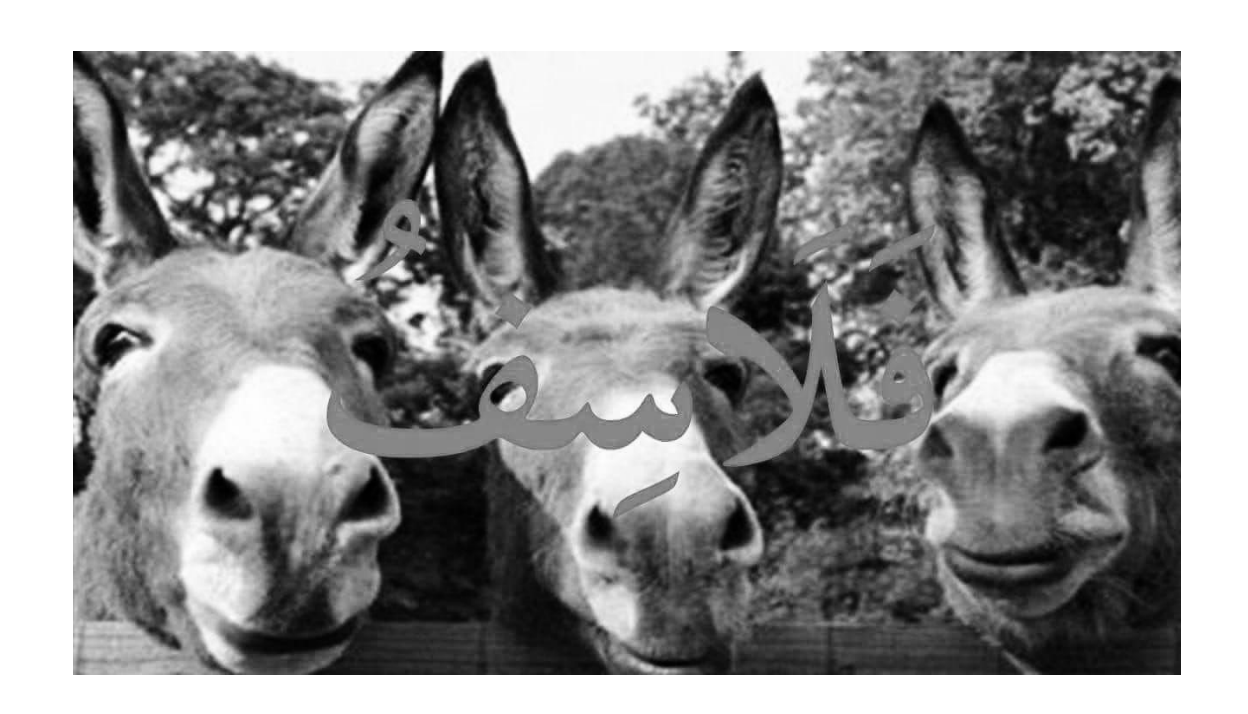
"وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا"!

ألا يتلقى عنها مرتبه كل شهر، كل شهر! لَعَمْرُ اللهِ إنها للإحسان كله دقه وجله! وكلما اجتهد في وظيفته ارتقى بدرجته جاها ومالا حتى ينقلب رئيسا آمرا بعدما كان مرؤوسا مأمورا، ولاسيما إذا رتع من ذلك في مرتع عالمي ينسلك فيه الأفراد من كل فج عميق ليشهدوا دون غيرهم منافع دون غيرها!

إنها حقا لمنتهى الفذاذة!

هَرَبٌ

- لولا التنقل ما هانت عليك المنازل؟
- لا قرار على زأر من الأسد!



اتِّبَاعٌ

- من مثالبنا عند بني آدم كذلك أننا إذا عرف أحدنا الطريق تقدم إليه فمضينا جميعا خلفه، وهم إذا عرفه أحدهم وتقدم إليه حسده غيره فخالفه وانقسموا عليهما!

اتِّهَامٌ

- كلما خذَل أحدٌ أحدًا أو سرَقه أو صخِب عليه، اتهموني أنا وأخويّ، وكأن ليس في الدنيا ثلاثة حمير غيرنا!

أَخْيَافٌ

- هم ثلاثة من بني آدم، مثلنا حذو النعل بالنعل.
- معاذ الله أن نكون بحيث نتشابه!
- صدقت! فهم إذا شبع أحدهم أكل أخاه، فكيف به إذا جاع- ونحن إذا جاع أحدنا طلب لأخيه مثلما يطلب لنفسه، فكيف به إذا شبع!

أَدَوَاتٌ

خَذّال:

- أَفْلَحَ مَنْ كانت له كَسّارةْ
  يَحني عليها الهِمم الفَوّارةْ

سَرّاق:

- أفلَحَ مَنْ كانت له طَيّارةْ
  يحمي عليها مكسب الشَّطَارةْ

صَخّاب:

- أَفْلَحَ مَنْ كانت له زَمّارةْ
  يحكي عليها قصة الحضارةْ

أَرْبَابٌ

- وَإِذَا صَخِبْتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الْغنَاءِ الْمُسْتَثِيرِ
- وَإِذَا خَذَلتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الْعَدَاءِ الْمُسْتَطِيرِ
- وَإِذَا سَرَقْتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الْبِنَاءِ الْمُسْتَدِيرِ

أَشَاعِرُ

- من أشعر المعاصرين من العرب عندك، يا خَذّال؟
- عبد الوهاب البياتي!
- وعندك، يا صَخّاب؟
- نزار قباني!
- ومن أشعرهم عندك أنت، يا سَرّاق؟
- أدونيس!

أَصْحَابٌ

- من مثالبنا عند بني آدم اصطحابُنا متساوين صغارا وكبارا، على حين لا يصطحبون إلا متكبرًا صغارُهم بكبارهم وكبارُهم على صغارهم!

أَصْوَاتٌ

- يسمع بنو آدم أصواتنا نهيقا واحدا، ويسمع بعضهم أصوات بعض دعاء وغناء وقضاء!

اكْتِفَاءٌ

- من مثالبنا كذلك عند بني آدم أننا إذا اكتفَينا لم نزدَد، وهم يظلون يزدادون ولا يكتفون!

أَمَانَةٌ

- إذا نهقنا وتعوَّذ من الشيطان بنو آدم، فقد أدينا الأمانة!

انْتِخَابَاتٌ

- تفتننا عن أنفسنا كثيرا مواسمُ الانتخابات الممتعة، لا نستطيع جميعا معا أن نحضر مشاهدها كلها، فنتنازعها: ليغلبنا خَذّال على مشاهد الشمال، وصَخّاب على مشاهد الوسط، فأحمدُ الله على مشاهد الجنوب!

انْحِرَافٌ

- انظرا إلى بني آدم هؤلاء المصلين خلف إمامهم!
- لقد صف أحدهم قدميه بمحاذاة قدمي جاره الذي تراجع قليلا عن محاذاة قدمي جاره!
- فلما جاء رابع فلمح قدمي الأول المستقيمتين فصف قدميه بمحاذاتهما نبهه الثالث على أن يتراجع إلى محاذاة قدميه هو نفسه!

- هكذا هم في صلاتهم مثلهم في معيشتهم، يحرفون عن الأصل قليلا قليلا، ثم يتمسكون بالانحراف، وينكرون الاستقامة!

بَرْسِيمٌ

- اتق الله، هذا أعظم الخلق إخلاصا لنا!
- ولكنه مولع أبدا بإهانتنا!
- إنه يستر الإخلاص بالإهانة.
- ومتى يظهر لنا إخلاصه المنتظر؟
- أوانَ البرسيم!

بَلِيَّةٌ

- حهاااااء... هاااااء... حهاااااء... هاااااء...
- ما لك تضحك -يا سَرّاق- وما عهدناك إلا بكاء!
- شر البلية -يا صَخّاب- شر البلية، يا أخي!
- وما ذاك؟
- ذاك الإنسان الذي احترقت أطراف ملابسه اليوم قد انتشر في دمه السرطان منذ سبعين سنة!
- لا حول ولا قوة إلا بالله، ألهذا تضحك!
- إنه مشغول عن سرطان دمه باحتراق أطراف ملابسه!

تَأَمُّلٌ

- نتأمل مستقبلنا الرغيد وقد انسللنا مطمئنين من عنق الزجاجة إلى بطن الوادي؛ فنحمد الله على التوفيق!

تَشْبِيهَاتٌ

- ماذا إذا شبَّهنا بحور الشعر العربي؟

- الهزج والرجز والسريع نحن (الحمير)، والطويل والرمل والخفيف جِمال، والوافر والكامل والمتدارك خيول، والبسيط والمجتث والمتقارب ظباء، والمديد والمنسرح والمضارع والمقتضب ذئاب!

جَرَائِرُ

- أُفّ لهذا العلف ولجرائره -وإن لم نعلفه غير مرة كل سنة!- نتملّأ منه فيرى بعضُنا نفسَه أحدَ ملوك بني آدم، وبعضُنا نفسَه أحدَ أثريائهم، وبعضُنا نفسَه أحدَ مُطْربيهم!

جَرِيشٌ

- نحب جريش الفول وترانا الخيول نتهمه فتعزف عنه إلى جريش الشعير!

جِنَازَةٌ

- ما هذا الازدحام يا أخي؟
- جنازة أحمد خالد توفيق.
- ومن أحمد خالد توفيق؟
- طبيب من بني آدم أديب مربٍّ أريب.
- رحمه اللّٰه، وطيب ثراه! وهؤلاء المزدحمون جميعا مُعَزُّون عنه؟
- بل مُتَعَزُّون به، لم يعرفوه إلا بعدما مات!

جَهْدٌ

- كلما اكتمل عامٌ نظرنا إلى جهدنا فيه، فوجدناه أمامنا!

حَزْمٌ

- نأكل معا ونشرب ونركض ونلعب، لا يدري أيٌّ منا حين يفعل ذلك أنه يفعله، حتى يجن أحدنا فيرى نفسه غير نفسه، فلا يفتأ ينازعنا الأكل والشرب والركض

واللعب، لا يرتاح ولا يريح، فإن لم نتجمع عليه لنرمحه رمحة حمار واحد فنقضي عليه، لم نزل منه في كرب عظيم!

حَظٌّ

صَخّاب:

- خَلِيلَيَّ ذَا رَبْعُ ابْنِ آدَمَ فَارْبَعَا

أجز!

خَذّال:

- خَلَا مِنْهُ فَاخْتَالَا بِهِ وَتَمَتَّعَا

أَقَامَ عَلَيْنَا لَا يُوَقِّرُ عَيْرَنَا

أجز!

صَخّاب:

- وَلَا يَرْحَمُ الْجَحْشَ الْمُسَوَّرَ مَضْجَعَا

سَرّاق:

- سِنِينَ عِجَافًا ثُمَّ أَخْصَبَ حَظُّنَا لَسَوْفَ يَرَانَا مِنْهُ أَهْدَى وَأَنْفَعَا

حِلَاقَةٌ

- حهاءهاااااء حهاءهووووء حهاءهيييي ء!
- ما لك، يا صَخّاب؟
- هذا الحلاق يسأل الدكتور محمد جمال صقر: هل أحلق أسفل رأسك على درجتين كعادتي وأعلاه على ثلاث، فيجيبه: وهل بقي للثلاث من نصيب!
- مسكين! ولكن ماذا في ذلك؟
- ذهبَ الحلاق يُعوِّض الثلاثَ من حاجبيه وشاربه وأنفه!

حِمَارٌ

- هل أصلحُ مِن العربي حين كان من أسمائه حمار، وأفسدُ مِنه حين صار من شتائمه!

حِمَــارَةٌ

صَخّاب:

- من لي بحمارة من شارع محمد علي، تفهمني من نهقة واحدة، أرحل بها لنعمل معا في صدى البلد!

خَذّال:

- من لي بحمارة من ميدان لاظوغلي، تفهمني من دورة واحدة، أرحل بها لنعمل معا في العريش!

سَرّاق:

- من لي بحمارة من قصر العيني، تفهمني من سحبة واحدة، أرحل بها لنعمل في شارع الجمهورية!

حَنِينٌ

- أَحِنُّ إِلَى رَكْضِ الْخُيُولِ وَصَوْتِهَا حَنِينَ مَلُولٍ لَمْ تَعَفْ مِثْلَ صَمْتِهَا
- قاتلك الله من صَخّاب!
- ولكنني:

أَحِنُّ إِلَى صَبْرِ الْوُعُولِ وَفَوْتِهَا حَنِينَ نَجُولٍ أَعْرَضَتْ عَنْ مُشَتِّهَا

- قاتلك الله من خَذّال!

ولكنني:

- أَحِنُّ إِلَى فُولِ الْحُقُولِ وَقَتِّهَا حَنِينَ عَجُولٍ أَمْسَكَتْ قَبْلَ وَقْتِهَا
- قاتلك الله من سَرّاق!

خَيْبَةٌ

- ما أعجب ما سمعت اليوم، يا سَرّاق؟
- جماعة من بني آدم -يا صَخّاب- يتساجلون بحِكَم الإنجليز والفرنسيين والروس والصينيين والهنود، كلٌّ يتلو أجود ما حفظ، فيَطرب له أصحابُه حتى يتأوّهوا!
- لا بأس عليهم؛ فالحكمة ضالّتهم.

- يقف عليهم أحدُ مَن مرَّ بهم فسمعهم، فيتلو عليهم من الكلام العربي ما يكافئ حكمهم أو يزيد عليها.
- لا بأس عليه ولا عليهم؛ قد وصلهم ولم يقطعهم، وزادهم ولم ينقصهم.
- فينظر بعضهم إلى بعض، ثم يتضاحكون منه، ويتشاغلون عنه!
- خابوا -هداهم اللّٰه!- وخسروا، وصدق ربنا الأعز الأجل -سبحانه، وتعالى!-: "وَإِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ"!

دَعْوَةٌ

- هذا لحم مشوي طيب!
- وماذا عن البرسيم؟
- أدعوك إلى اللحم المشوي، وتسألني عن البرسيم!
- لا بأس، يمكنك أن تلف القطعة من اللحم بحزمة من البرسيم، فتسوغ، إن شاء اللّٰه!

رَجُلَانِ

صَخّاب:

- عَلَى رِجْلِي الْيُمْنَى تَحَمَّلْتُ بِالْيُسْرَى
  أَجِزْ!

خَذّال:

- وَمِنْ قَبْلُ مَا حَمَّلْتَهَا رِجْلِيَ الْيُمْنَى
  إِذَا خِفْتُ هَذِي الْمَتْنِي هَذِهِ
  أَجِزْ!

صَخّاب:

- فَمَا زِلْتُ فِي كَرْبٍ يَدُورُ بِلَا مَعْنَى

سَرّاق:

- عَذِيرُكُمَا هَذِي شَرِيكَةُ هَذِهِ بِثِنْتَيْهِمَا كِلْتَيْهِمَا يَبْلُغُ الْمَغْنَى

شَرَفٌ

- رحم الله والدينا، فلولا حرصهما على شرفنا عند الحمير لكنا الآن بغالا عند الخيول!

شُغُلٌ

- كنا في أيام عِزّ بني آدم مثال الاجتهاد عندهم، يتمادحون بقولهم: حمير شغل، ثم صرنا في أيام ذُلّهم مثال الإهمال، يتنابزون بقولهم: شغل حمير!

ضِدّانِ

صَخّاب:

- ما لك مطمئنا أبدا، أما بك من قلق تؤوب إليه وتعتمد عليه!

سَرّاق:

- وما حاجته وهذا اطمئنانه؟

صَخّاب:

- اطمئنان لا خير فيه، ولا قيمة له، ولا أملَ منه!

خَذّال:

- بل بي قلق، ولكن على اطمئناني، فأنا أصطنع أبدا ما أصونه به.

صَخّاب:

- لولا القلق ما صرختُ في البَرّيَّة، ولا خرجتُ على البَرِيَّة، ولا ظَفِرتُ بالأُعطيَّة!

خَذّال:

- لولا الاطمئنان ما أنصتُّ إلى البَرّيَّة، ولا رأفت بالبَرِيَّة، ولا مُنِحتُ الأُعطيَّة!

طَبَائِعُ

- ما أخلَص طبائعَنا وأَروَبَ طبائعَ بني آدم؛ يولد الحمار منا صَخّابا أو سَرّاقا أو خَذّالا، ويموت على ذلك، وابن آدم يولد صَخّابا ليصير سَرّاقا ثم خَذّالا، ثم خَذّالا سَرّاقا صَخّابا جميعا معا!

عُصُورٌ

- آه أيها العَصْر! ما أَدَلَّ اسمَكَ على فعلك بنا! ولو خُيِّرتُ لاخترتُ عصر الجاهليين، لأَعيش نجمًا ساطعا في شعر الشماخ بن ضرار!
- أما أنا فلو خُيِّرتُ لاخترتُ عصر الراشدين، لأعيش أخًا مكرمًا عندهم مثل أنفسهم!
- أما أنا فلا أفضّل على عصر المعاصرين عصرا، لأعيش طليقًا باحتقارهم لي!

نَخْرٌ

- لو لم نكن حميرا لَتمنَّينا أن نكون حميرا!

فُنُونٌ

- نهيق أخي خَذّال مثل قصيد النثر، ونهيق أخي صَخّاب مثل الشعر الحر، أما نهيقي أنا محسوبكم سَرّاق فشعر عمودي خالص!

مَبْدَأٌ

- يرضى كل منا أن يأكله الأسدُ حين ينفرد به، ولا يرضى أن يُجرح ذيلُه حين نرمحه!

مُتَعٌ

- ماذا بقي من متعتك؟
- أن أجمع أطراف جِذعي فأرمح عجيزة الخائن المتصدّر!

- وأنت؟
- أن أملأ أطراف صدري فأخرق أذن الكاذب المتفصّح!
- أما أنا فأن أشحذ أطراف فمي فأقضَم آلة الفاجر المتعفّف!

مَزَايَا

- أنا سَرّاق، ولا عيبَ فيّ غير أنني أتغفّل الراعي فأنتسف طعام الغنم! وهذا خَذّال أخي الكبير، ولا عيب فيه غير أنه يأبى أن يصحبني! وذاك صَخّاب أخي الصغير، ولا عيب فيه غير أنه ينهق عندئذ بنا!

مَكَانَةٌ

- ما أعجب ما رأيت اليوم -يا صَخّاب- من أحوال بني آدم؟
- متدين يطلب المكانة عند ملحدين!
- وأنت، يا سَرّاق؟
- عربي يطلب المكانة عند صهاينة!
- وأنت، يا خَذّال؟
- عَموديّ يطلب المكانة عند مُقَصّدِي نثرٍ!

مَوَاقِفُ

صَخّاب:
- إذا كثر الكلام قل الإنصات!

خَذّال:
- إذا كثر العلم قل العمل!

سَرّاق:
- إذا كثر الفضل قل العدل!

نَدَمٌ

- عندما صرنا ثلاثة فرح أبَوانا كثيرا، ثم لما استقلّ كلٌّ منا برأيٍ ندِمَا على اثنين!

هَاتِفٌ

- نسمعُ هاتفًا مِن رَحِم الغيب يدعونا إلى المضي بسيرتنا النظيفة إلى غايتنا الشريفة!

هَمَزَاتٌ

- ألأننا إذا همزَتنا الشياطين نهَقْنا ولم نتراقص، جعلتمونا من الجامدين المتبلّدين!

هُيَامٌ

- انظرا إلى هذا الإنسان المسكين!
- نعم؛ يا له مِن سجين طليق وطليق سجين!
- يظل في بيته يفتش عن الحياة في الكتب، فإذا ما خرج من بيته فتش عن الكتب في الحياة!
- هذا الذي لا يرى إلا ما يريد ولا يريد إلا ما يرى، أما آن له أن يأكل من الشجرة!

وَصْفَةٌ

- ماذا يَعمل الإنسانُ حتى يَكون حمارًا حقيقيًّا؟
- ألّا يَعمل إلا ما يُحسن!
- وماذا يَعمل الحمارُ حتى يَكون إنسانًا حقيقيًّا؟
- ألّا يَعمل، وأن يَسخر ممَّن يَعمل!

وَهْمٌ

- يتمثّل صَخّاب أحيانا صهيلَ بعض الخيول، فيعرض عنا إلى أطراف حظيرتها، ويسرح فيها بصره، ثم لا يلبث أن يرتدَّ إلينا مرموحا بجذْوة أحد الخيول!

ثُمَّ "الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ"؛
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ!



الدكتور محمد جمال صقر، مصري مولود بمصر في ١٣٨٥/١١/٢٨=١٩٦٦/٣/٢٠.

كاتب أديب لغوي، أستاذ بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة، مشغول من الأدب بالشعر والقصة والمقال ومن اللغة بنظرية النصية العروضية وتطبيقاتها، في موقعه هذا: www.mogasaqr.com، بيان سيرته العلمية والعملية، وطائفة من أعماله كبيرة متنوعة.